الدكتور
محمود السيد شيخون

الإعجاز في نظم القرآن

الطبعة الأولى
١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م

الناشر
مكتبة الكليات الأزهرية
حسين محمد امبابي وأخوه محمد
الصنادقية - الأزهر - القاهرة

تمهيـــد

نبذة تاريخية عن حيـاة العرب الادبية قبل الاســلام :

تروى كتب التـاريخ والسير أن العرب قبل الاسـلام كانوا قبائل متفرقة مختلفة النزعات ، وكاد تكل قبيلة تكون وحدة مستقلة ، لهـا مركزها بين القبـائل الاخرى ، ولهـا حدودها الخاصة ، وحمـاها المستقل الذى تذود عنه وتفنى فى حمايته ، وكانت كل قبيلة تعتز بماضيها ، وتحرص على تأريخ نضال آبائها وأجدادها وجهادهم لاعلاء شـأن القبيلة ، ورعاية أفرادها وحمايتهم ، كما تعتز القبيلة بحاضرها فتمجد شعراءها ، وتفخر بخطبائها• تتغنى بأشعارهم وتروى خطبهم ، لان الخطيب أو الشـاعر كان لسـان القبيلة الناطق ، ينشر مفاخرها ، ويتغنى بأمجادها ، ولذلك كان الشـعراء والخطباء يتمتعون بمنزلة عالية فى المجتمع العربى آنذاك • ونتج عن ذلك أن راجت سـوق الادب رواجا كبيرا ، وأدى هذا الرواج الى التنافس بين الشعراء والخطباء أيهم أقـدر على اظهار قبيلته بالمظهر اللائق بهـا بين القبائل الاخرى • ثم تطور هذا التنافس الى المبـاراة فيما بينهم على قدرة التعبير والتصوير وقوة المعـانى وجزالة الاسلوب • فكان من نتيجة ذلك أن سمت أذواقهم ، وتوسعت مداركهم فى النـاحية الادبية حتى وصلوا الى رتبة فى البيـان والبلاغة والادب لم تستطع الاجيـال التى تلتهم أن يلحقوا فى هذا المضمار • وقد وصفهم محمد بن جرير الطبرى فى تفسيره بأنهم رؤسـاء صناعة الخطب والبلاغة ، وقيل الشـعر والفصـاحة والسجع والكهانة • كل خطيب منهم بليغ ، وكل شـاعر فيهم فصيح(١) •

وقد وصف عتبة بن أبى سفيان كلامهم أيضـا فقال : « ان للعرب كلاما هو أرق من الهواء ، وأعذب من المـاء ، مرق من أفواههم مروق السـهام من قسيها بكلمات مؤلفـات ، ان فسرت بغيرها عطلت ، وان بدلت بسواها من الكلام استصعبت • فسهولة ألفاظهم توهمك أنها ممكنة اذا سمعت ، وصعوبتها تعلمك أنهـا مفقودة اذا طلبت(٢) » •

---

(١) تفسير الطبرى جـ ١ ص ٤ ـ ٥

(٢) زهر الآداب للحصرى جـ ٣ ص ٤٨

وقد أشــار الدكتور طه حسين الى النهضة الادبية التى كانت عند العرب في نهــاية العصر الجــاهلى أى قبيل نزول القرآن ، وأن العرب فى ذلك الوقت كانوا قد بلغوا الذروة فى البيــان والبلاغة والادب فقال : « ان العرب فى نهاية العصر الجاهلى أخذوا يخضعون صناعة الكلام لنقــد أولى ، ولكن فى أغلب الاحوال سديد ، لانهم كانوا يعولون فيه على سلامة الذوق ، وقد بلغ بهم الامر أن استكشفوا عيوبا فنية فى النظم ، ووضعوا من النصح والارشــاد ما يفيد كلا من الخطيب والشــاعر فى صناعته(١) » ٠

---

(١) مقدمة نقد النثر ص ٤ ط بولاق سنة ١٩٤١ م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقــــدمة

الحمد لله ٠ نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب اليه ، ونعوذ بالله من شرور أنسنا ومن سيات أعمالنا ، من يهد الله فلا فضـل له ، ومن يضـلل فلا هادى له ، وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورســوله صلى الله وعلى آله وصحبه ، ومن أتبع سنته ، واهتدى بهداه الى يوم الدين ٠ وبعــد

فهذه دراســات حـول النظم القرآنى أردت أن أوضح من ورائها بعض ما ينطوى عليه هذا الكتاب المبين من روعة البيــان واعجازه ٠ وكيف أنه أعجز أساطين البيان من العرب مع أنه منظوم من نفس الحروف والكلمات التى ينظمون منها كلامهم ؟ وكيف أنه بنظمه الفريد قد أثر فيهم تأثيرا بليغا ، فطار بألبابهم واستولى على أحاسيسهم ومشاعرهم ، وأدهش عقولهم ، وأوقعهم فى حيْرة، ووقفوا أمامه مذهولين فمنهم من خضع لسلطانه وأذعن لبلاغته وبيانه ، فدان له وآمن به عن ادراك وعقيدة بعد أن تذوق حلاوته ، ولمس اعجازه بفطرته العربية السليمة ، وملكته النـافذة الحكيمة ومنهم من ضـاق به ذرعا فكابر وعاند ، وأضله الله على علم فأنكر الشمس فى وضح النهـــار ، وجحـد التنزيل بعـد اليقين والاستيقان ٠

ولم أقصـد من وراء هذه الدراســات الى الاستقراء والاستقصاء فمثلى يستعصى عليه مثل ذلك فى هذا الميدان ، وانمــا الذى قصـدت اليه ، هو أن أنال رشــفة من بحر هذا البيــان الالهى ، أمتع بهـا الخـاطر والنفس ، وأسعد بهــا الفكر والخيــال ٠ وحسبى وحسب القــارىء أن نقف من وراء ذلك وقفة المتأمل الخاشع عند شـاطىء هذا اليم ٠٠ نمتع البصر فيما عجز عن ادراك كنهه العقل ، ونرهف السمع لهذا الذى سجد لبيــانه البيــان ٠فكم من جمال تذوب تأثرا به النفس ، ولا يحـده الفكر والعقل ، وكم من حقيقة جاثمة وراء حـدود دلالة النطق والكلام ، فلا يعبر عنهــا الا الحيرة الخاشعة ، ولا يتبينها سوى صــادق الاحســاس ٠

وقد وضعت هذه الدراسات تحت عنوان « الاعجاز فى نظم القرآن » ·

وقد مهدت لها بالحديث عن الحيــاة الادبية عند العرب قبيل نزول القرآن ، وما كانوا عليه من الفصــاحة والبيان · ثم قسمت هذه الدراســات الى خمسة فصــــول :

تكلمت فى الفصــل الاول عن الاعجاز كيف نشــأ ؟ وكيف تطور ؟ ثم أمطت اللثــام عن وجوهه ·وتكلمت فى الفصل الثانى عن الذين كتبوا فى الاعجاز ، فكشف القناع عن جهودهم فى هذا المجــال ومدى تأثر بعضــهم ببعض فى هذا الميــدان ، وناقشت آراءهم وبنيت وجه الصــواب فيهــا ·

وفى الفصــل الثالث تكلمت عن مظاهر الاعجاز فى القرآن الكريم ، موضحا هذه المظاهر بالكثير من الامثلة القرآنية ·

وفى الفصــل الرابع تكلمت عن الاعجاز وعلاقته بالصور والالوان البلاغية، وهل هذه الصــور والالوان معجزة فى القرآن أولا ؟ ووضحت القول فى ذلك ، وأوردت بعض الامثلة القرآنية المشتملة على هذه الصــور والالوان ، وقمت بتحليلهــا حسب طاقتى وعلى قــدر فهمى وادراكى ·

ثم تحدثت فى الفصل الخامس والأخير عن الاعجــاز فى نغم القــرآن المنبعث من نظمه الفريد · وقد أيدت ذلك ببعض الأمثلة القرآنية ··

والله الكريم أســأل أن يجعل هذه الدراســات خالصــة لوجهه الكريم ، وأن يوفقنا دائمــا لخــدمة القرآن العظيم ·· انه سميع مجيب ، وهو حسبى ونعم الوكيل ··

الدكتور
محمود السيد شيخون
الاستاذ المساعد فى الجامعة الاسلامية
بالمدينة المنورة

الفصـــل الأول

الاعجـــاز

نشـأته ـ تطوره ـ وجوهه

فى هذا الفصـل من البحث أريد أن أميط اللثـام عن فكرة الاعجـاز كيف نشـأت ؟ وكيف تطورت ؟ فأقول طالبـا العون والتوفيق من الله تعالى : ان فكرة الاعجـاز قديمة وموغلة فى القـدم اذ ان أصولهـا ترجع الى أوائل نزول القرآن الكريم ، فحين نزل جبريل الامين بالقرآن الكريم على خاتم المرسلين سيدنا محمد صلى الله علية وسلم كان العرب آنذاك قد بلغوا القمة فى الفصاحة والبيـان كما أشرت الى ذلك قبلا ، فلمـا سمعوه أصـابتهم الدهشة ، ووقفوا أمام روعة بيـانه حيـارى مذهولين ، فكان اعجازه عند هؤلاء القوم ينفذ الى أحاسيسهم ومشـاعرهم فيستولى عليهـا ، ولقد حكى القرآن حيرتهم وما دار على ألسنة شيوخهم وكبرائهم ممن لهم قـدم راسخة فى البلاغة والبيـان ، فهذا عتبة بن ربيعة ، وكان مقدما فى قومه ، وقد اجتمع اليه نفر من قريش ، وكان محمد صلى الله علية وسلم جالسـا وحـده فى المسجد ، وقـد حز فى نفوسهم أن يروا أتبـاع محمد صلى الله عليه وسلم يزيدون ، ويكثرون ، لا سيما بعد أن أسلم حمزة عم النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال عتبة لقومه : ألا أقوم الى محمد فأكلمه ، وأعرض عليه أمورا لعله يقبل بعضها ، فنعطيه أيهـا شـاء ، ويكفّ عنا ، فقالوا يا أبا الوليـد : قم اليه فكلمة ، فقـام اليه عتبة ، حتى جلس الى رسـول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا ابن أخى انك منا حيث قد علمت من العشيرة والمكان والنسب ، وانك قد أتيت قومك بأمر عظيم مزقت به جماعتهم ، وسفهت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ، ودينهم ، وكفرت به من مضى من آبائهم ، فاسمع منى أمورا ننظر فيهـا لعلك تقبل منا بعضها ، قال : قل يا أبا الوليـد ، قال يا ابن أخى ان كنت انما تريد بما جئت ما لا جمعنـا لك من أموالنـا حتى تكون أكثرنا مالا ، وان كنت تريد ملكاً ملكناك علينـا ، وان كان هذا الذى يأتيك رئيـا(١) تراه لا تستطيع رده عن

---

(١) الرئىَ : بفتح الراء فهمزة مكسورة فياء مشددة : التابع من الجن وقيل التابع المحبوب من الجن « النهاية لابن الاثير مادة « رأى » .

نفسك طلبنا لك الطب ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فانه ربما غلب التابع على الرجل يداوى منه حتى اذا فرغ عتبة ورسول الله صلى الله عليه وسلم يسمع منه قال : أقد أفرغت يا أبا الوليد قال : نعم قال فاسمع منى قال افعل قال بسم الله الرحمن الرحيم حم : تنزيل من الرحمن الرحيم كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون ، بشيرا ونذيرا فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون(١) » ، ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرؤها عليه ، فلما سمعها عتبة أنصت لها وألقى يديه خلف ظهره معتمدا عليهما يسمع منه ، ثم انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم الى السجدة فسجد ، ثم قال : قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك فقام عتبة الى أصحابه فقال بعضهم لبعض نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به فلما جلس قالوا اننا وراءك يا أبا الوليد ، قال : ورائى أنى سمعت قولا ، والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ، ولا بالسحر ، ولا بالكهانة ، يا معشر قريش أطيعونى واجعلوها بى ، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه ، فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت نبأ عظيم ، فان تصبه العرب فقد كيفتموه بغيركم ، وان يظهر على العرب فملكه ملككم ، وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به ، فقالوا سحرك يا أبا الوليد بلسانه ، قال هذا رأيى فيه ، فاصنعوا ما بدا لكم(٢) .

وهذا الوليد بن المغيرة ، وهو من رؤساء قريش ومن بلغائهم وأبينائهم قد أفزعه وفود العرب الى مكة ، وقد سمعوا بأمر محمد صلى الله عليه وسلم فيما سيوا جهونهم ، فأشار على قومه ، أن يجمعوا العرب فاجتمع حوله نفر من قريش ، وكل منهم مسحور بهذا القرآن متحير فى أمره ، لا يدرى ماذا يقول ؟ فأرادوا أن يوكلوا الامر الى الوليد بن المغيرة باعتبار منزلته ، وسنه ، يقول رأيه فى محمد والقرآن المنزل عليه ، ولكنه رفض ، وقال : بل أنتم فقولوا نسمع ، قالوا : نقول : كاهن ، قال : والله ما هو بكاهن لقد رأينا الكهان ، فما هو بزمزمة الكاهن ، ولا سجعه ، قالوا : فنقول : انه مجنون ، قال : ما هو بمجنون ، لقد رأينا الجنون وعرفناه ، فما هو بخنقه ، ولا تخالجه وسوسته ،

---

(١) فصلت : ١ ـ ٤

(٢) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٩٩ ط بولاق ـ نهاية الارب للنويرى جـ ١٦ من ص ٢١٠ ـ ٢١١

قالوا فنقول : شاعر ، قال : ما هو بشاعر ، لقد عرفنا الشعر كله رجزه ، وهزجه ، وقريضه ، ومقبوضه ، ومبسوطه ، فما هو بالشعر ، قالوا فنقول : ساحر ، قال : ما هو بساحر ، لقد رأينا السحار وسحرهم ، فما هو بنفثهم ، ولا عقدهم ، قالوا : فما نقول يا أبا عبد شمس قال والله : ان لقوله لحلاوة ، وان أصله لغدق ، وان فرعه لجناة ، وما أنتم بقائلين من هذا شيئا ، الا عرف انه باطل ، وان أقرب القول فيه ، أن تقولوا : ساحر ، جاء بقول هو سحر ، يفرق بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجه ، وبين المرء وعشيرته ، فتفرقوا عنه بذلك ، فجعلوا يجلسون بسبيل الناس حين قدم الموسم ، لا يمر بهم أحد الا حذروه اياه ، وذكروا له أمره ، فأنزل الله تعالى فى الوليد بن المغيرة قوله : « **ذرنى ومن خلقت وحيدا ، وجعلت له ما لا ممدودا ، وبنين شهودا ،** ومهدت له تمهيدا ثم يطمع أن أزيد ، كلا انه كان لآياتنا عنيدا ، سأرهقه صعودا ، انه فكر وقدر ، فقتل كيف قدر ، ثم قتل كيف قدر ، ثم نظر ، ثم عبس وبسر ، ثم أدبروا ستكبر ، فقال ان هذا الا سحر يؤثر ان هذا الا قول البشر(١) .

وأنزل الله فى النفر الذين كانوا معه ـ أى مع الوليد بن المغيرة ـ يصنفون القول فى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفيما جاء به من عند الله «الذين جعلوا القرآن عضين ، فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون»(٢) .

وهذا عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وكان من أساطين العرب وأبينائهم ينمو الى سمعه أن أخته وزوجها قد أسلما ، فيذهب الى بيت أخته ، يريد أن يبطش بها ، ولكنه حين سمع من أخته وهى تتلو القرآن أو قرأ الصحيفة التى بيدها لم يستطع الوقوف أمام بيان القرآن وروعة نظمه فسرعان ما سكن غضبه ، وهدأت أعصابه ، وطلب محمدا ليعلن اسلامه .

وينقل ابن الاثير فى البداية عن البيهقى ما نصه : « أن أبا جهل ، وأبا سفيان ، والاخنس بن شريق خرجوا ليلة ليسمعوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو يصلى بالليل فى بيته ، فأخذ كل رجل منهم مجلسا يستمع منه ، وكل لا يعلم بمكان صاحبه ، فباتوا يستمعون له ، حتى اذا

---

(١) سورة المدثر آية ١١ ـ ٢٥

(٢) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٩٠ وما بعدها .

أصبحوا ، وطلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق ، فتلاوموا ، وقال بعضهم لبعض لا تعودوا ، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم فى نفسه شيئا ، ثم انصرفوا حتى اذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم الى مجلسه فباتوا يستمعون له حتى اذا طلع الفجر تفرقوا · فجمعهم الطريق فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة ثم انصرفوا حتى اذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل منهم مجلسه ، فباتوا يسمعون له ، حتى اذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق ، فقالوا لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود فتعاهدوا على ذلك ، ثم تفرقوا فلما أصبح ابن شريق أخذ عصاه ، ثم خرج حتى أتى أبا سفيان فى بيته ، فقال أخبرنى يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد ، فقال يا أبا ثعلبة ، والله لقد سمعت أشياء أعرفها ، وأعرف ما يراد بها فقال الاخنس ، وأنا والذى حلفت به ، ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل ، فقال يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد فقال : ما سمعت ، تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ، أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا حتى اذا تجاثينا على الركب ، وكنا كفرسى رهان ، قالوا : منا نبى يأتيه الوحى من السماء ، فمتى ندرك هذه ؟ والله لا نسمع له أبدا ، ولا نصدقه ، فقام عنه الأخنس ابن شريق »(٢) ·

ويروى عن أبى عبيدة أن أعرابيا سمع رجلا يقرأ « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين »(١) فسجد ، وقال سجدت لفصاحته ، وسمع آخر رجلا يقرأ ((**فلما استيأسوا منه خلصوا نجيا**))(١) فقال : أشهد أن مخلوقا لا يقدر على مثل هذا الكلام »(٣) ·

ولقد كان تأثير القرآن العظيم فى مشركى قريش عاما ، فلم ينج عنه منهم كبير ولا صغير ، رئيس ولا مرؤوس تناولهم هذا التأثير على اختلاف درجات عقولهم ، بل لقد كان فى رؤسائهم أشد وفى فصحائهم وبلغائهم أقوى من عامتهم ، لانهم أدرى بفنون الكلام وأساليبه ·

---

(١) البداية والنهاية فى التأريخ لابن كثير ج ١ ص ٦٤ ط · مصر ·
(٢) سورة الحجر آية ٩٤
(٣) سورة يوسف آية ٨٠
(٤) القاضى عياض ص ٢١٧ وما بعدها ·

وأمام هذا التأثير القوى الذى أدهشهم وأذهلهم ، وأوقعهم فى حيرة انقسموا فريقين :

فريق أذعن وسلم ، وآمن واهتدى ، وفريق كابر وعاند ، ورأى أن خير طريقة للخلاص من تأثكر هذا القرآن الانصراف عن سماعه ، وصرف الناس أيضا ، فنزل القرآن على لسانه فقال تعالى : **((وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون))(٤) .**

فكانوا يجلسون بسبيل الناس لا يمر بهم أحد الا حذروه من الاجتماع بمحمد صلى الله عليه وسلم والاستماع له(٥) .

وهذا الفريق ظل فى عناده وكفره وجحوده وانكاره وقال : **((قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا ان هذا الا أساطير الاولين))(٦) .**

وحينئذ تحداهم القرآن أن يأتوا بمثله ، وأفرغ هذا التحدى فى قوالب مختلفة من اللفظ والأسلوب وأنهضهم الى ذلك بالتقريع والتحميس ، ومختلف أشكال التحدى فقال لهم مرة مؤنبا ومقرعا :

((أم يقولون تقوله . بل لا يؤمنون . فليأتوا بحديث مثله ان كانوا صادقين))(٧) .

وقال لهم بأسلوب آخر **((أم يقولون افتراه . قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين . فان لم** يستجيبوا لكم فاعلموا انما أنزل بعلم الله لا اله الا هو فهل أنتم مسلون))(٨) وقال لهم مرة : **((وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين))(٩)** ولما عجزوا عن الاتيان بمثله أو بعشر سور مثله أو بسورة من مثله وبان عجزهم قال لهم فى تحد بلغ القمة فى البيان **((قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل**

---

(١) سورة فصلت آية ٢٦

(٢) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٩١ ط . بولاق .

(٣) سورة الانفال آية ٣١

(٤) سورة الطور آية ٣٣ ـ ٣٤ .

(٥) سورة هود ١٣ ـ ١٤

(٦) سورة البقرة ٢٣ ـ ٢٤

هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا »(٢) وصدق الله العظيم وتمت المعجزة وثبت الاعجاز لهذا الكتاب العظيم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ٠

ومع عجزهم عن التحدى فان بعضا منهم قد أكلت الغيرة قلبه وسولت له نفسه الشريرة أن يعارض القرآن فنزل الميدان وأتى بكلام بارد مضحك وأساليب سخيفة كانت مثار سخرية العقلاء فيما بعد ، ومن هؤلاء مسليمة ابن حبيب الكذاب الذى تنبأ باليمامة فى أواخر حياة الرسول صلى الله عليه وسلم فقد زعم أن له قرآنا آخر يوحى اليه من السماء وقد جاء فى قرآنه هذا فيما رووا قوله :

« يا ضفدع بنت ضفدعين ، نقى ما تنقين ، نصفك فى الماء ، ونصفك فى الطين ، لا الماء تكدرين ، ولا الشارب تمنعين » ومن ذلك قوله : « والخابزات خبزا ، والثاردات ثردا ، واللاقمات لقما ، اهالة وسمنا ، لقد فضلتم على أهل الوبر ، وما سبقكم أهل المدر ، ريفكم فامنعوه ، والمعتر فاووه ، والباغى فناوئوه» وقوله : « والشاء وألوانها ، وأعجبها السود وألبانها ، والشاة السوداء ، واللبن الأبيض ، انه لعجب محض ، وقد حرم المذق فما لكم لا تمجعون »(٣) ٠

وقوله : « الفيل ما الفيل ، وما أدراك ما الفيل ، له ذنب وبيل ، وخرطوم طويل » ٠

ومن هؤلاء أيضا عبلهة بن كعب الذى يقال له الأسود العنسى ، وطليحة بن خويلد الأسدى ، وسجاح بنت الحارث التميمية ، والنضر بن الحارث ٠

وقد رأيت ألا أطيل فى نقل كلامهم فى المعارضة ، لأنه لا يساوى المداد الذى يكتب به ومن أراد الاطلاع على مثل هذا الكلام البارد المضحك السخيف فعليه بكتب الجاحظ ، واعجاز القرآن للرافعى ، وتفسير الطبرى ولكن هذا الفريق سرعان ما تخاذل ، وافتضح أمره ، وانقطعت أنفاسه ، وظهر عجزه وبان خطله مما سبق يستبين لنا أن ادراك العرب الذين عاصروا نزول القرآن للاعجاز كان فطريا غير مسبوق بدراسة ، ولا طول نظر فى الكتب ، وانما أدركوا هذا الاعجاز بفطرتهم العربية السليمة ، وما جباهم الله من ذوق سليم وفصاحة وبيان ، ولذلك كان ايمانهم بهذا الدين ايمانا راسخا ، ناضلوا دونه ، وبذلوا دماءهم وأموالهم فى سبيله ٠

---

(١) سورة الاسراء ٨٨

(٢) المذق : مزج اللبن بالماء والمجع : اللبن يشرب على التمر ٠

ولكن بعد أن تقدم الزمن ، وانتشر المسلمون فى أرجاء الأرض بانتشار الاسلام فى الأمصار وابتعدوا عن البيئة العربية السليمة ، واختلطوا بغيرهم من أبناء البلاد المفتوحة ، لم يعد اعجاز القرآن يدرك بالفطرة ، وانما صار ادراكه يتطلب دراسة واعية ومستفيضة للغة العربية ، واحاطة بغريبها ومعرفة تامة بأساليب التعبير فيها ، لتنمو لدى من يريد التصدى لمعرفة الاعجاز ملكة تمكنه من ادراك هذه الناحية فى القرآن العظيم ، فانتقل الاعجاز من مرحلة « التذوق الفطرى » الى مرحلة « التذوق العلمى » الذى يجب أن تسبقه دراسة واسعة لاساليب اللغة العربية تؤهل صاحبها لادراك ناحية الاعجاز فى القرآن العظيم ، وهذا يعنى أن الاعجاز الذى كانت تدركه أكثرية العرب من الذين عاصروا نزول القرآن الكريم ، أصبح من اختصاص طائفة قليلة من المسلمين ، هى التى بيدها وسائل التذوق الفنى ، ولهذا كثرت التساؤلات والاستفهامات حول اعجاز القرآن الكريم فيم وقع الاعجاز ؟ وفى أى من القرآن ؟ وما هى وجوه هذا الاعجاز ؟ ولماذا صار القرآن معجزا ؟ وهل هو معجز بلفظه أو معناه أو بما يشتمل عليه من المغيبات أو التشريعات ؟

وقد ساعد على كثرة هذه الاستفهامات ، نقل ما دار على ألسنة المعاندين من قريش ، وآيات التحدى التى جاءت لتتحدى من تسول له نفسه الجحود بايات الله ، ثم الآيات الكثيرة التى نزلت لتحث المسلمين على تدبر معانى القرآن ، وتفهم أحكامه ، وقد استغل الشعوبيون هذه الناحية - أعنى كثرة الاستفهامات - فراحوا ينفثون سمومهمفى صفوف المسلمين ليشككوا ضعاف الايمان فى عقيدتهم كالجعد بن درهم(١) .

ولما ازداد نشاط هؤلاء المغرضين الحاقدين من الشعوبيين فكثرت مطاعنهم فى القرآن الكريم ، واتخذت المسألة شكلا سافرا ، وصارت تشكل خطرا على العامة من المسلمين هب المخلصون من علماء المسلمين للذب عن قرآنهم ، والدفاع عنه ، ورد كيد الكائدين فى نحورهم .

ومن هنا نجد دراسة اعجاز القرآن تتخذ شكلا آخر هو « الدفاع عن القرآن الكريم ، ونفى ما أثاره هؤلاء الشعوبيون من شكوك وأباطيل » .

---

(١) هو من الموالى ، وقد جاهر بارائه الغريبة ، والمخالفة لنصوص القرآن الكريم فقال : أولا بخلق القرآن ثم أنكر تكليم الله لموسى عليه السلام ، كما أنكر اتخاذ الله ابراهيم خليلا ، وكان أيام هشام بن عبد الملك الخليفة الأموى فلما سمع به هشام طلبه فظفر به ، وأرسله الى خالد بن عبد الله القسرى عامله على العراق ليقتله فضحى به خالد صباح يوم عيد الأضحى المبارك وكان ذلك حوالى ثمان عشرة ومائة للهجرة .

« الكامل لابن الأثير جـ ٥ ص ١٩٥ ، ١٩٧ ، ٣٢٩ ط . ليدن » .

ويمكننا أن نعتبر كتاب « مجاز القرآن » لأبى عبيدة معمر بن المثنى المتوفى سنة ٢٠٩ هـ مظهر النشاط العلماء فى هذا الباب وذلك لسببين :

الأول : سبب تأليفه لهذا الكتاب ، حين استقدمه الفضل بن الربيع الى بغداد سنة ١٠٨ هـ فسأله أحد جلساء الوزير ، وهو ابراهيم بن اسماعيل الكاتب عن قوله تعالى ((**طلعها كأنه رؤوس الشياطين**))(١) قائلا لأبى عبيدة انما يقع الوعد والايعاد بما عرف مثله ، وهذا لم يعرف ، متوهما السائل بأن الله سبحانه وتعالى ، قد أوعد بما لم يعرف ، على اعتبار أن الشياطين لا يرون بالعين الباصرة ، فأجابه أبو عبيدة بأن الله سبحانه وتعالى انما كلم العرب على قدر كلامهم ، فلم يأت بما لم يألفوه ، واستشهد ببيت امرىء القيس :

أيقتلنى والمشرفى مضاجعى ومسنونة زرق كأنياب أغوال

فقارن له أبو عبيدة بين رؤوس الشياطين ، والغول ، لأن العرب لم يروا الغول أيضا ، ولكن أمره كان يهولهم ٠

السبب الثانى : هو موضوع هذا الكتاب الذى يتناول فيه أبو عبيدة طرق التعبير القرآنى ليعرضها على ما للعرب من فنون فى التعبير ، فيجد لها مثيلا فيه ، فكأن أبا عبيدة فى عمله هذا يريد أن يدلل على عربية القرآن وفصاحته ، وأنه لم يأت بغريب فى التعبير لم تألفه العرب ٠

ولابد أن يكون هذا الاستفسار الذى جوبه به أبو عبيدة مثلا واحدا لحركة واسعة كانت تستهدف النيل من القرآن الكريم ، وهذه الآية التى استثارت أبا عبيدة كانت هى نفسها - على ما يبدو - موضع جدل ونقاش أثاره هؤلاء الطاعنون ، ليدللوا بها على عدم فصاحة القرآن ، ولذلك نرى الجاحظ يورد نفس الآية ، ليدحض ما دار حولها من الافتراءات(٢) ٠

ثم جاء من بعده الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ هـ فتصدى للشعوبين الحاقدين ووقف فى وجوههم فألف كتاب النبوة ليرد به على هؤلاء الشعوبين كما صرح هو نفسه بذلك فقال : « فكتبت كتابا أجهدت فيه نفسى ، وبلغت فيه أقصى ما يمكن مثلى ، فى الاحتجاج للقرآن ، والرد على كل طعان ، فلم أدع فيه مسألة لرافضى ، ولا لحديثى ، ولا لحشوى ، ولا لكافر مباد ، ولا لمنافق

---

(١) سورة الصافات آية ٦٥

(٢) الحيوان جـ ٦ ص ٢١١ - ٢١٣

مقموع ، ولا أصحاب النظام ، ولمن نجم بعد النظام ممن يزعم أن القرآن حق ، وليس تأليفه بحجة ، وأنه تنزيل ، وليس ببرهان ، ولا دلالة »(١) ٠

ويقول الجاحظ أيضا : « ولى كتاب جمعت فيه آيات من القرآن لتعرف بها فضل ما بين الايجاز والحذف ، وبين الزوائد ، والفضول ، والاستعارات ، فاذا قرأتها رأيت فضلها فى الايجاز والجمع للمعانى الكثيرة بالألفاظ القليلة(٢) ٠

وقد امتدح ابن الخياط هذا الكتاب فقال : « لا يعرف المتكلمون أحدا منهم نصر الرسالة ، واحتج للنبوة بلغ فى ذلك ما بلغه الجاحظ ، ولا يعرف كتاب فى الاحتجاج لنظم القرآن ، وعجيب تأليفه ، وأنه حجة لمحمد صلى الله عليه وسلم على نبوته غير كتاب الجاحظ »(٣) ٠

ولم يقتصر الجاحظ فى دفاعه عن القرآن الكريم على كتاب النبوة و « نظم القرآن » وانما نراه فى أكثر مؤلفاته لم يترك فرصة الا ويندد بأعداء القرآن ، ففى احدى رسائله ، بعد أن يدلل على عجز العرب عن الوقوف أمام فصاحة القرآن ، ويأسهم من معارضته ، والتجائهم الى بذل أرواحهم وأموالهم فى محاربته يقول : « وهل يذعن الأطراب ، وأصحاب الجاهلية للتقريع بالعجز والتوقيف على النقص ، ثم لا يبذلون مجهودهم ، ولا يخرجون مكنونهم ، وهم أشد خلق الله أنفة ، وأفرطه حمية ، وأطلبه بطائلة ، وقد سمعوه ـ أى القرآن ـ فى كل منهل وموقف والناس موكولون بالخطاب ، مولعون بالبلاغات ، فمن كان شاهدا ، فقد سمعه ، ومن كان غائبا فقد أتاه به ، من لم يزوده ، واما أن يكون غير ذلك ، ولا يجوز أن يطبقوا على ترك المعارضة ، وهم يقدرون عليها ، لأنه لا يجوز على العدد الكثير من العقلاء ، والدهاة والحكماء مع اختلاف عللهم ، وبعد هممهم ، وشدة عداوتهم على بذل الكثير ، وصون اليسير ، وهذا من ظاهر التنديد ، ومن جليل الأمور التى لا تخفى على الجهال فكيف على العقلاء وأهل المعارف ؟ فكيف على الأعداء ؟ لان تحبير الكلام أهون من القتال ومن اخراج المال » ٠

ثم يصرح الجاحظ بأسماء نفر من الشعوبيين ، ليندد بهم فيقول : « والذى منعهم ـ يعنى العرب ـ من ذلك هو الذى منع ابن العوجاء ، واسحاق بن طالوت ، والنعمان بن المنذر وأشباههم من الأرجاس الذين استبدلوا بالعز ذلا ، وبالايمان كفرا ، وبالسعادة شقوة ، وبالحجة شبهة ، بل لا شبهة بالزندقة خاصة ، فقد كانوا يضعون الآثار ، ويولدون الأخبار ويبثونها فى

---

(١) رسائل الجاحظ على هامش الكامل للمبرد جـ ٢ ص ١٢١ ـ ١٢٢
(٢) الحيوان جـ ٣ ص ٧٦ ط ٠ هارون ٠
(٣) الانتصار لابن الخياط ص ١٥٤ ـ ١٥٥

الأمصار ، ويطعنون فى القرآن ، ويسألون عن متشابهه ، وعن خاصه وعامة ويضعون الكتب على أهله »(١) ٠

وكذلك فى كتابه « البيان والتبيين » نراه كثيرا ما يشيد بفضل العرب، وبلاغتهم وأخلاقهم(٢) وما ذلك الا كرد فعل للموجة التى سادت المجتمع الاسلامى ، والتى يحاول فيها المغرضون من الشعوبيين التقليل من شأن العرب وتراثهم الفكرى ٠

ثم جاء بعد الجاحظ « ابن قتيبة » المتوفى سنة ٢٧٦ هـ فندب نفسه للدفاع عن القرآن الكريم فعمد الى تأليف كتابه « تأويل مشكل القرآن » وكان هذا سبب تأليفه لهذا الكتاب ، كما أوضحه ابن قتيبة نفسه فقال : « وقد اعترض كتاب الله بالطعن ملحدون ، ولغوا فيه ، وهجروا ، واتبعوا **« ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله »(٣)** بأفهام كليلة وأبصار عليلة ، ونظر مدخول ، فحرفوا الكلم عن مواضعه ، وعدلوه عن سبله ، ثم قضوا عليه بالتناقض ، والاستحالة فى اللحن وفساد النظم ، والاختلاف ، وأدلوا فى ذلك بعلل ربما أمالت الضعيف الغمر ، والحدث الغر ، واعترضت بالشبه فى القلوب، وقدحت بالشكوك فى الصدور ، فأحببت أن أنضح عن كتاب الله ، وأرمى من ورائه بالحجج النيرة ، والبراهين البينة ، وأكشف للناس ما يلبسون ، فألفت هذا الكتاب جامعا لتويل مشكل القرآن مستنبعا ذلك من التفسير بزيادة فى الشرح والايضاح ، وحاملا ما لا أعلم فيه مقالا لامام مطلع على لغات العرب ، لأرى المعاند موضع المجاز ، وطريق الامكان من غير أن أحكم فيه برأى ، أو أقضى عليه بتأويل ، ولم يجز لى أن أنص بالاسناد الى من له أصل التفسير ، اذ كنت أقتصر على وحى القوم حتى كشفته وعلى ايمائهم حتى أوضحته ، وزدت فى الالفاظ ، ونقصت ، وقدمت ، وأخرت ، وضربت لبعض ذلك الامثال والاشكال حتى يستوى فى فهمه السامعون »(٤) ٠

وقد ركز ابن قتيبة اهتمامه على الآيات التى كانت موضع جدل ونقاش من قبل هؤلاء الطاعنين ، وقد نوه عن ذلك أثناء كلامه على المتشابه والمشكل من القرآن فقال : « وأصل التشابه أن يشبه اللفظ اللفظ فى الظاهر ، والمعنيان مختلفان قال الله عز وجل فى وصف ثمر الجنة : **« وأتوا به**

---

(١) حجج النبوة ضمن رسائل الجاحظ التى نشرها السندوسى ص ١٤٥، ١٤٦ ط ٠ مصر سنة ١٩٣٣ م

(٢) البيان والبيتين جـ ٣ ص ١٣ ط ٠ مصر سنة ١٣٣٢ هـ ٠

(٣) آل عمران : ٧

(٤) تأويل مشكل القرآن ص ١٧ ــ ١٨

متشابها))(١) أى متفق المناظر مختلف الطعوم وقال : **((تشابهت قلوبهم))**(٢) أى يشبه بعضها بعضا فى الكفر والقسوة ، ومنه يقال : اشتبه على الامر ٠ اذا أشبه غيره فلم تكد تفرق بينهما ٠ وشبهت على ٠ اذا لبست الحق بالباطل ، ومنه قيل لاصحاب المخاريق ٠ أصحاب الشبه ، لانهم يشبهون الباطل بالحق ، ثم يقال لكل ما غمض ودق ٠ متشابه ، وان لم تقع الحيرة فيه من جهة الشبهة بغيره ، ألا ترى أنه قد قيل للحروف المقطعة فى أوائل السور ٠ متشابهة ، وليس الشك فيها والوقوف عندها ، والتباسها بها ، ومثل المتشابه المشكل ، وسمى مشكلا لأنه أشكل أى دخل فى شكل غيره فأشبهه وشاكله ، ثم قد يقال لما غموضه من هذه الجهة مشكل ٠ وقد بينت ما غمض معناه لالتباسه بغيره ، واستتار المعانى تحت لفظه ، وتفسير المشكل الذى ادعى على القرآن فساد النظم فيه ، وقدمت قبل ذلك أبواب المجاز اذ كان غلط المتأولين من جهته))(٣) ٠

وقد استهل ابن قتيبة كتابه هذا بمقدمة تناول فيها صفة القرآن ، وأنه المعجزة الكبرى التى نسخت سالف الكتب السماوية مشيدا بعجيب نظمه ، وعظيم معانيه ، مع قلة ألفاظه ومبانيه ، ودلل ابن قتيبة على ذلك بايات من القرآن لينبه على ما أودعه الله فيها من المعانى بأسلوب لطيف ٠ يقول ابن قتيبة : ((فان شئت أن تعرف ذلك ((أى لطف أسلوب القرآن)) فتدبر قوله تعالى : **((خذ العفو وامر بالعرف وأعرض عن الجاهلين))**(٤) ٠

كيف جمع الله له ـ أى للرسول صلى الله عليه وسلم ـ بهذا الكلام كل خلق عظيم ، لان فى أخذ العفو صلة القاطعين ، والصفح عن الظالمين ، واعطاء المانعين ، وفى الامر بالعرف تقوى الله ، وصلة الارحام ، وصون اللسان عن الكذب ، وغض الطرف عن الحرمات ، وانما سمى هذا وما أشبهه عرفا ومعروفا لان كل نفس تعرفه ، وكل قلب يطمئن اليه ، وفى الاعراض عن الجاهلين ، الصبر والحلم ، وتنزيه النفس عن مماراة السفيه ، ومنازعة اللجوج ٠

وقوله تعالى اذ ذكر الأرض فقال : **((أخرج منها ماءها ومرعاها))**(٥) ٠

كيف دل بشيئين على جميع ما أخرجه من الأرض قوتا ومتاعا للانام من

---

(١) البقرة : ٢٥
(٢) البقرة : ١١٨
(٣) تأويل مشكل القرآن ص ٧٤ ـ ٧٥
(٤) الاعراف : ١٩٩
(٥) النازعات : ٣١

العشب والشجر والثمر والعصف(١) واللباس والنار والملح لان النار من العيدان والملح من الماء ، وينبئك أنه أراد ذلك قوله تعالى : ((**متاعا لكم ولأنعامكم**))(٢) ثم يمضى ابن قتيبة فى ايراد آيات أخرى(٣) ليتناولها بنفس الطريقة ، وكأن ابن قتيبة فى مقدمته هذه يريد أن يبين للقارىء طرفا من بلاغة القرآن الكريم .

وبعد هذه المقدمة يعقد ابن قتيبة بابا يتكلم فيه عن العرب وما خصهم الله به من العارضة(٤) وقوة البيان ، وتفننهم فى أساليب كلامهم ، ومقدرتهم الفطرية على الارتجال فى المحافل والاندية والمجتمعات ، ثم يتكلم عن اللغة العربية وميزاتها وخصائصها التى انفردت بها عن سائر اللغات بسبب حروف هجائها واعرابها ، ثم يورد أمثلة يبين فيها أثر العرب فى استقامة المعنى ووضوحه ، فيستهل هذا الباب بقوله : ((**وانما يعرف فضل القرآن من كثر نظره ، واتسع علمه ، وفهم مذاهب العرب وافتنانها فى الاساليب ، وما خص** الله بها لغتها دون جميع اللغات ، فانه ليس فى جميع الامم أمة أوتيت من العارضة والبيان واتساع المجال ما أوتيته العرب خصيصى من الله لما أرهصه فى الرسول وأراده من اقامة الدليل على نبوته بالكتاب فجعله علمه ، كما جعل علم كل نبى من المرسلين من أشبه الامور بما فى زمانه المبعوث فيه))(٥) .

ثم يتكلم ابن قتيبة عن أسلوب المجاز فى اللغة العربية فيقول : ((وللعرب المجازات فى الكلام ومعناها طريق القول ومأخذه ففيها الاستعارة والتمثيل والقلب والتقديم والتأخير والحذف والتكرار والاخفاء والاظهار والتعريض والافصاح والكناية والايضاح ومخاطبة الواحد مخاطبة الجميع والجميع خطاب الواحد والواحد والجميع خطاب الاثنين والقصد بلفظ الخصوص لمعنى العموم وبلفظ العموم لمعنى الخصوص مع أشياء كثيرة ستراها فى أبواب المجاز ان شاء الله وبكل هذه المذاهب نزل القرآن ولذلك لا يقدر أحد من التراجم أن ينقله الى شيىء من الالسنة كما نقل الانجيل عن السريانية الى الحبشية وترجمت التوراة والزبور ، وسائر كتب الله بالعربية لان العجم لم تتسع فى المجاز اتساع العرب))(٦) وهو يريد من كل ما ذكره من خصائص اللغة

---

(١) العصف : ورق الزرع وما لا يؤكل منه ((لسان العرب ج ١ ص ١٥٢ ط بولاق)) .

(٢) النازعات : ٣٣

(٣) تأويل مشكل القرآن ص ٥ ومابعدها .

(٤) العارضة : هى قوة الكلام وتنقيحه والرأى الجيد ((لسان العرب ج ٩ ص ٤٣)) .

(٥) تأويل مشكل القرآن ص ١٠

(٦) المصدر نفسه ص ١٦

العربية وأساليبها أن يبرهن على أنه لا يمكن لأحد الوقوف على أسرار القرآن وفهم أسلوبه ومعانيه الا بالمام بأساليب اللغة العربية والوقوف على فنون التعبير فيها ، هذا بالنسبة الى العربى أما بالنسبة لغير العربى فانه يحتاج الى ممارسة وطول نظر فى لغة العرب حتى يتمكن من ذلك ٠

ثم استبعد ابن قتيبة امكان نقل القرآن الى غير اللغة العربية لعدم اتساع تلك اللغات لاساليب اللغة العربية وطرق التعبير فيها ٠ وهذا الحكم من ابن قتيبة هو عين الحقيقة لان المترجم وان تمكن من نقل معانى الالفاظ القرآنية الى اللغة التى يريد ترجمة القرآن اليها لا يتمكن من أن ينقل الى تلك اللغة أسرار لغة العرب وايحاءات التركيب التى امتاز بها القرآن الكريم والتى تملك على العربى أحاسيسه ومشاعره وتهزه حين يطلع عليها ٠ ولما كان المترجم عاجزا عن ذلك فلا يجوز اذن ترجمة القرآن الى غير لغته لان الترجمة ستفقده صفة من صفات اعجازه ٠ ثم بعد ذلك يبدأ ابن قتيبة فى سرد طعون الملحدين فى القرآن تحت عنوان« الحكاية عن الطاعنين » فيذكر فى هذا الباب الآيات التى لاكتها ألسنة هؤلاء الشعوبيين مبينا وجهة نظرهم ومسجلا اعتراضاتهم ثم يذيل هذا الباب بقوله : « وقد ذكرت الحجة عليهم فى جميع ما ذكروا وغيره مما تركوا ، وهو يشبه ما أنكروا ليكون الكتاب جامعا للفن الذى قصدت له »(١) ٠

ثم يصنف ابن قتيبة ردوده على هذه الافتراءات الى أبواب هى : « باب لما يتعلق بوجوه القراءات » و « باب لما يتعلق باللحن » وكذلك التناقض والاختلاف والمتشابه والمجاز والاستعارة والمقلوب والحذف والاختصار وتكرار الكلام والزيادة فيه والكناية والتعريض ومخالفة ظاهرا للفظ معناه وتأويل الحروف التى ادعى على القرآن بها الاستحالة وفساد النظم فأفرد ابن قتيبة لكل من هذه الانواع بابا خاصا بها مستقرئا معظم سور القرآن ليشير الى ما ورد فيها من ذلك ٠

ففى باب الرد عليهم فى وجوه القراءات يقول ابن قتيبة : « وأما ما اعتلوا به فى وجوه القراءات من الاختلاف فانا نحتج عليهم فيه بقول النبى صلى الله عليه وسلم : « نزل القرآن على سبعة أحرف كلها شاف كاف فاقرأوا كيف شئتم » وقد غلط فى تأويل هذا الحديث قوم فقالوا السبعة الاحرف وعد ووعيد وحلال وحرام ومواعظ وأمثال واحتجاج ٠ وقال آخرون هى سبع لغات فى الكلمة ٠ وقال قوم : حلال وحرام وأمر ونهى وخبر ما هو كائن بعد وأمثال(٢) ٠ وليس شيىء من هذه المذاهب لهذا الحديث بتأويل ومن قال فلان يقرأ بحرف

---

(١) تأويل مشكل القرآن ص ٢٥

(٢) النشر فى القراءات العشر لابن الجزرى ج ١ ص ٢٢ - ٢٥

أبى عمرو(١) أو بحرف عاصم(٢) فانه لا يريد شيئا مما ذكروا وليس يوجد فى كتاب الله حرف قرئ على سبعة أوجه يصح فيما أعلم • وانما تأويل قوله صلى الله عليه وسلم : « نزل القرآن على سبعة أحرف » أى على سبعة أوجه متفرقة فى القرآن يدلك على ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « فاقرأوا كيف شئتم » وقال عمر : « سمعت هشام بن حكيم بن حزام يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرأها ، وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم أقرأنيها فأتيت النبى صلى الله عليه وسلم فأخبرته فقال له : اقرأ ، فقرأ تلك القـراءة فقال : هكذا أنزلت ، ثم قال لى : اقرأ ، فقرأت فقال : هكذا أنزلت ، ثم قال : « ان هذا القرآن نزل على سبعة أحرف فاقرأوا منه ما تيسر ، فمن قرأ قراءة عبد الله فقد قرأ بحرفه ، ومن قرأ قراءة أبى فقد قرأ بحرفه ، ومن قرأ قراءة زيد فقد قرأ بحرفة(٣) والحرف يقع على المثال المقطوع من حروف المعجم وعلى الكلمة الواحدة ويقع الحرف على الكلمة بأسرها والخطبـة كلهـا والقصـيدة بكمالها »(٤) •

ثم يمضى ابن قتيبة فيتكلم على القراءات السبع وأوجه الاختلاف بين كل من هذه القراءات ، وتحت عنوان « باب التناقض والاختلاف » يدفع ابن قتيبة فيقول : « فأما ما نجلوه من التناقض فى مثل قوله تعالى : **((فيومئذ لا يسأل عن ذنبه انس ولا جان))**(٥) وهو يقول فى موضع آخر : **((فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون))**(٦) فالجواب فى ذلك أن يوم القيـامة كما قال الله تعالى : **((مقداره ألف سنة))**(٧) •

ففى مثل هذا اليوم يسألون ، وفيه لا يسألون لانهم حين يعرضـون ويوقفون على الذنوب يحاسبون ، فاذا انتهت المسألة ووجبت الحجة **((انشقت السماء فكانت وردة كالدهان))**(٩) وانقطع الكلام وذهب الخصام ، وأسودت وجوه قوم ، وأبيضت وجوه آخرين ، وعرف الفريقان بسيماهم ، وتطايرت

---

(١) هو أبو عمرو سعيد بن اياس الشيبانى توفى سنة ٩٦ هـ

(٢) هو عاصم بن أبى النجود أحد القراء السبعة توفى سنة ١٢٧ هـ « الذهبى : طبقات القراء ورقة ٢٤ مخطوطة مصورة بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٥٣٧ تاريخ » •

(٣) يقصد عبد الله بن مسعود وأبى بن كعب وزيد بن ثابت « تأويل مشكل القرآن حاشية ص ٢٧ » •

(٤) تأويل مشكل القرآن ص ٢٦ ـ ٢٧

(٥) الرحمن : ٣٩

(٦) الحجـر : ٩٢

(٧) المعـارج : ٤

(٨) الرحمن : ٣٧

الصحف من الأيدى فاخذ ذات اليمن الى الجنة ، وآخذ ذات الشمال الى النار وكذلك قال ابن عباس رضى الله عنه فى قوله : « فيومئذ لا يسأل عن ذنبه انس ولا جان » قال هو موطن لا يسألون فيه ، ومثله **« ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون »(١)** ٠

وفى باب المجاز يقول ابن قتيبة : « وأما المجاز فمن جهته غلط كثير من الناس فى التأويل ، وتشعبت بهم الطرق ، واختلفت النحل فالنصارى تذهب فى قول المسيح عليه السلام فى الانجيل : « أدعو أبى ، وأذهب الى أبى » الى أبوة الولادة ولو كان المسيح قال هذا فى نفسه خاصة دون غيره لما جاز لهم أن يتأولوه هذا التأويل فى الله تبارك وتعالى عما يقولون علوا كبرا مع سعة المجاز فكيف وهو يقوله فى كثير من المواضع لغيره كقوله حين فتح فاه بالوحى : « اذا تصدقت فلا تعلم شمالك بما فعلت يمينك فان أباك الذى يرى الخفيات يجزيك به علانية واذا صليتم فقولوا يا أبانا الذى فى السماء ليتقدس اسمك ، واذا صمت فاغسل وجهك ، وادهن رأسك لئلا يعلم ذلك غير أبيك »(٢) ٠

وقد قرأوا فى الزبور أن الله تبارك وتعالى قال لداود عليه السلام : « سيولد لك غلام يسمى لى ابنا وأسمى له أبا » وفى التوراة أنه قال ليعقوب عليه السلام : « أنت بكرى » وتأويل هذا أنه فى رحمته وبره وعطفه على عباده الصالحين كالأب الرحيم لولده ٠ وكذلك قال المسيح للماء : « هذا أبى » وللخبز « هذا أمى » لان قوام الابدان بهما ، وبقاء الروح عليهما كالابوين اللذين منهما النشأة ، وبحضانتهما السخاء ٠ وكانت العرب تسمى الارض أما لانها مبدأ الخلق واليها مرجعهم ، ومنها أقواتهم ، وفيها كفايتهم قال أمية ابن الصلت :

والارض معقلنا وكانت أمنا ... فيها مقابرنا وفيها الولد

وقال يذكرها :

منها خلقنا وكانت أمنا خلقت ... ونحن أبناؤها لو أننا شكر
هى القرار فلا نبغى بها بدلا ... ما أرحم الأرض الا أننا كفر(٢)

وقال الله تعالى فى الكافر : **« فأمه هاوية »(٣)** لما كانت الام كافلة

---

(١) القصص : ٧٨
(٢) انجيل متى ص ١٢ ، ١٣ من العهد الجديد ط ٠ جمعية التوراة البريطانية الامريكية ٠
(٣) ديوانه ص ٣٢
(٤) القارعة : ٩

الولد ، وغاذيته ومأواه ومربيته كانت النار للكافر كذلك جعلها أمه ، وقال في أزواج النبى صلى الله عليه وسلم : ((**أو زواجه أمهاتهم**))(١) أى كأمهاتهم فى الحرمات الخ »(٢) ٠

وابن قتيبة فى مؤلفه هذا يعطينا صورة بينة المعالم للتحول الذى طرأ على دراسة اعجاز القرآن حيث اكتسبت هذه الدراسة شكل الدفاع عنه ودحض أقوال الخصوم الذين سددوا سهامهم المسمومة نحو القرآن الكريم للنيل منه فرد الله كيدهم فى نحورهم ، وأطفأ نارهم ٠ غير أن هذه التيارات والحملات الظالمة التى كان أبطالها الشعوبيون والحاقدون بدأت تضعف نتيجة للجهود المخلصة التى بذلها علماء المسلمين فى الدفاع عن القرآن الكريم واظهار زيف هذه الاقوال أمام الناس وبطلانها وكشف مراميها وأهدافها ٠ وبضعف هذه التيارات بدأت دراسة اعجاز القرآن الكريم تعود الى اتجاهها الاول ٠ وهو بيان وجوه الاعجاز فى القرآن الكريم ٠

وجوه الاعجاز فى القرآن الكريم

لا أريد أن أستفيض فى بحث هذه الوجوه ، واستقصائها ، والحديث عن مذاهب العلماء فيها ، واختلاف وجهات نظرهم ازاءها ، لان هذا المسلك يبعدنى عن موضوع البحث وهو « الاعجاز فى نظم القرآن » ولكننى سأتحدث عن هذه الوجوه بايجاز ، ثم أبسط القول فى الوجه الذى يخص هذا البحث وهو « النظم » فأقول مستعينا بالله وحده :

ان القرآن معجز من وجوه مختلفة بعضها خاص بالعرب الذين درسوا اللغة العربية ، وتذوقوا بلاغتها ، وبعضها الآخر عام يدركه العقلاء من الناس على اختلاف أجناسهم ٠

أما ما يخص العرب من ذلك فهو بديع نظمه ، وعجيب تأليفه وسموه فى البلاغة الى الحد الذى يعجز الخلق عن الاتيان بمثله ٠

واعجاز القرآن من هذا الوجه حجة على العرب ، لانهم هم الذين يدركون هذا المعنى فيه ، والعرب حجة على سائر الناس ، لانهم اذا رأوا أن أرباب هذه اللغة ، وأدباءها قد قصر بهم الطوق عن تأليف مثله ، أدركوا أنه معجز ، وأنه ليس مما يقدر عليه البشر وأما ما يدركه من ذلك الناس كلهم فيتلخص فى ثلاثة وجوه :

---

(١) الاحزاب : ٦

(٢) تأويل مشكل القرآن ص ٧٦ – ٧٧

الوجه الاول : ما فيه من الاخبار عن المغيبات ، وقد وقعت كما أخبر ، فواضح أن ذلك مما لا يقدر عليه البشر ، ولا سبيل لهم اليه ، ويوجد من ذلك فى القرآن كثير •

فمنه قوله تعالى : ((**قل للذين كفروا ستغلبون ، وتحشرون الى جهنم وبئس المهاد**))(١) •

وقوله تعالى : ((**ألم ، غلبت الروم فى أدنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون ، فى بضع سنين ، لله الامر من قبل ومن بعد**(٢) **وقوله تعالى : ((لقد صدق الله رسوله بالحق لتدخلن المسجد الحرام ، ان شاء الله آمنين ، محلقين رؤوسكم ومقصرين**))(٣) •

الوجه الثانى : ما فيه من الاخبار عن الماضى السحيق ، من حين خلق الله آدم الى مبعث محمد صلى الله عليه وسلم ، مما لم يكن يعلمه أحد من الناس • ولم يكن مثبوتا شيىء منه الا فى الكتب السماوية السابقة ، وقد علم لدى الناس جميعا ، أن محمدا صلى الله عليه وسلم كان أميا لا يحسن قراءة ولا كتابة ، ولم يكن يعرف شيئا من كتب المتقدمين ، وأنبيائهم وسيرهم ولم يعثر مؤرخ أو باحث ، على أنه لازم راهبا ، أو رجلا من علماء الكتب السماوية ليتعلم منه شيئا مما عنده ، واذا كان هذا كله من اليقين ، الذى لم يتطرق اليه شك أى باحث أو مؤرخ ، فمن البدهى اذن ، أنه لا يمكن ، أن يصل الى علم شيىء من ذلك الا بتأييد من الوحى الالهى ، واخبار من جهته •

الوجه الثالث : ما يتضمنه هذا الكتاب من التشريع العظيم الدقيق ، المتعلق بشتى أمور الحياة الخاصة والعامة ، والذى عنت لعظمته جباه علماء التشريع والقانون ، وكانوا ولا يزالون يعلنون أنه لا غنى لاى مقنن ، أو مشرع عن الاستفادة من كنز تشريعه ، والاعتماد على مبادئه وأحكامه ، فجميع المؤتمرات الفقهية التى أقيمت فى أنحاء مختلفة من العالم أجمعت فيها كلمة علماء الفقه والقانون ، على اختلاف نحلهم ، ومذاهبهم ، على مدى أهمية الفقه الاسلامى ، وروعته ، وضرورة الاقبال على دراسته ، والاستفادة منه(٤) •

---

(١) آل عمران : ١٢

(٢) الروم : ١ ــ ٢

(٣) الفتح : ٢٧

(٤) من ذلك المؤتمر القانونى الذى عقد فى « لاهاى » سنة ١٩٣٨ م فقد قرر فى نهايته المؤتمرون ، اعتبار الشريعة الاسلامية ، مصدرا من مصادر التشريع العام ، وأنها حية قابلة للتطور ، وأنها شرع قائم بذاته ، ليس مأخوذا عن غيره ، ومن ذلك أيضا مؤتمر المحامين الدولى فى « لاهاى » الذى

فاذا تأملت فى هذا الفقه الذى يقال عنه هذا الكلام فى القرن العشرين ، انما يعود مصدره الى ما قبل أربعة عشر قرنا من الزمن ، وأن قانونا ما ، لم يبق حيا صالحا خلال عشر هذه المدة ، وأن الذى تنزل عليه هذا القانون رجل أمى ، لم يقرأ كتابا ، ولم يخط بيمينه حرفا واحدا ، فضلا عن أن يتوفر على دراسة التشريع ، أو أن يعكف على قانون « جوستنيان » أو يجمع من حوله الباحثين وأرباب العلم ، والاختصاص ـ اذا تأملت فى هذا البداهة ، أنه صلى الله عليه وسلم ، لا يمكن أن يصل ، الى علم شيىء من ذلك أيضا ، الا من جهة الوحى ، وأخباره(١) .

وقد ذكر الباقلانى هذه الوجوه فى كتابه « اعجاز القرآن »(٢) كما أشار اليها السيوطى فى كتابه « الاتقان »(٤) .

وبعد أن ذكرت هذه الوجوه ، فان حديثى الآن سوف يكون مقصورا ، على الوجه الاول ، وهو ، ما ينطوى عليه هذا الكتاب العظيم من الاعجاز البلاغى ، الذى ووجه به العرب مباشرة ، ثم ووجه به الناس كلهم ، عن طريق العرب ، فكان حجة عليهم كلهم .

عقد فى سنة ١٩٣٨ واشتركت فيه ٥٣ دولة والذى قرر المؤتمرون فى نهايته أنه يجب على جمعية المحامين الدولية ، أن تتبنى الدراسة المقارنة للتشريع الاسلامى العظيم وتشجع عليها ، نظرا لما فيه من مرونة ، ولما له من شأن ، ومن ذلك المؤتمر الحقوقى الذى عقد فى « باريس سنة ١٩٥١ ، وقرر ، أن لمبادىء الفقه الاسلامى قيمة تشريعية لا يمارى فيها ، وأن الفقه الاسلامى بمذاهبه ، يستجيب لجميع مطالب الحياة الحديثة » .

(١) من روائع لاقرآن للبوطى ص ١٣٥ ـ ١٣٦ .
(٢) اعجاز القرآن للباقلانى ص ٢٥٩
(٣) الاتقان للسيوطى جـ ٢ ص ١١٩

الفصل الثـاني

« الذين كتبوا في الاعجـاز »

ان الحديث عن الاعجاز فى القرآن الكريم ، ينبغى أن يكون مسـبوقا بالحديث عن الذين كتبوا فيه لنعرف من خلال كتاباتهم ماذا يريدون من هـذا الاعجاز ؟ ولكى نقف على جهودهم فى هذا المضمار ، ونتعرف على آرائهم ، ونستجلى وجهات نظرهم ، ونكشف القناع عن اتجاهاتهم وسنراعى فى الحديث عن هؤلاء التسلسل الزمنى لنستوضح الآراء الاصلية ، والاراء المستفادة من الغير ، ونميز بين المجدد منهم والمقلد • فنقول وبالله التوفيق :

ان الذين كتبوا فى الاعجاز فى القرآن الكريم كثيرون ، ولكن حديثنـا سيكون مقصورا على الذين كتبوا فى هذا الجانب بافاضة وعمق ، ولعل أول من أفاض فى هذا الجانب من وجهة نظرنا هو « أبو الحسن على بن عيسى الرمانى » المتوفى سنة ٣٧٤ هـ فى كتابه « النكت فى اعجاز القرآن » •

وان الناظر المتأمل فى كتابه هذا يرى أنه يقرر أن القرآن معجز بألفاظه ، وأسلوبه ، ونظمه ، وأثره فى النفوس اذ نراه يقسم البلاغة الى طبقـات ثلاث :

منها ما هو فى أعلى طبقة ، ومنها ما هو فى أدنى طبقة ، ومنها ما هـو فى الوسط بين أعلى طبقة ، وأدنى طبقة ، فما كان فى أعلى طبقة فهو معجز ، وهو بلاغة القرآن ، وما كان منها دون ذلك فهو ممكن كبلاغة البلغاء من الناس • ثم نراه يعيب على من عرف البلاغة بأنها : افهام المعنى أو على أنها تحقيق اللفظ على المعنى ، معللا ذلك بأنه قد يفهم المعنى متكلمان أحدهما بليـغ ، والآخر عيبى ، كما أنه قد يحقق اللفظ المعنى ، وهو غث مستكرة ، ونافر متكلف: يقول الرمانى : « وليست البلاغة افهام المعنى ، لانه قد يفهم المعنى متكلمان : أحدهما بليغ ، والآخر عيى ، ولا البلاغة أيضا بتحقيق اللفظ على المعنى ، لانه قد يحقق اللفظ المعنى ، وهو غث مستكره ، ونافر متكلف »(١) ثم يعـرف البلاغة بأنها : ايصال المعنى الى القلب فى أحسن صورة من اللفظ ، وتعريفه هذا يدل على تمتعه بذوق جمالى رفيع ، ينظر من خلاله الى الكلام البليغ ، فكم يكون لطيفا هذا الكلام الذى ينطبق عليه تعريف الرمانى هذا بحيث تنقل ألفاظه ما تحمله من معان الى القلب دون عناء أو تكلف •

---

(١) النكت فى اعجاز القرآن ص ٢٢

ثم يستفيض الرمانى فى الحديث عن بلاغة القرآن الكريم ، فيجعلها فى أعلى رتب البلاغة ، ويقرر أنها معجزة للعرب والعجم فيقول : « فأعلاها - أى أعلى طبقات البلاغة - معجز للعرب والعجم كاعجاز الشعر المفحم • فهذا معجز للمفحم خاصة ، كما أن ذلك معجز للكافة(١) •

ثم يتوسع الرمانى فى الكلام على البلاغة ، فيقسمها الى عشرة أقسام ، ويفرد لكل قسم من هذه الاقسام بابا خاصا ، يتكلم عنه فيقـول : « والبلاغة على عشرة أقسام : الايجاز ، والتشبيه ، والاستعارة ، والتلاؤم ، والفواصل ، والتجانس ، والتصريف ، والتضمين ، والمبالغة وحسن البيان ، ونحن نفسرها بابا بابا ان شاء الله تعالى(٢) :

ثم يتناول الرمانى هذه الابواب العشرة للبلاغة ، بحسب ترتيبها المذكور ، لبشرح كل واحد منها ، فيبدأ أولا بباب الايجاز ، فالتشبيه ، ثم الاستعارة ، وهكذا الى نهاية الابواب العشرة •

يبدأ الرمانى بباب الايجاز ، فيعرفه أولا ، ثم يأتى بأمثلة على الايجـاز بأنواعه من القرآن الكريم ، وبعد أن ينتهى من ذلك يعقد مقارنة بين ما ورد منه فى القرآن ، وبين ما ورد فى كلام العرب ، من هذا الفن ، هادفا من وراء ذلك الى بيان فضل ايجاز القرآن على غيره من كلام العرب ، يقول الرمانى فى تعريف الايجاز :

« الايجاز تقليل الكلام ، من غير اخلال بالمعنى » ، واذا كان المعنى يمكن أن يعبر عنه بألفاظ قليلة فالالفاظ القليلة ايجاز •

ثم يقسم الرمانى الايجاز الى قسمين :

ايجاز حذف ، وايجاز قصر ، ثم يتكلم عن كل من هذين القسمين فيقول :

فالحذف اسقاط كلمة للاجتزاء عنها ، بدلالة غيرها من الحال أو فحـوى الـكلام •

والقصر : بنية الكلام على تقليل اللفظ ، وتكثير المعنى من غير حذف •

فمن الحذف : **« واسأل القرية »**(٣) ومنه **« ولكن البر من اتقى »**(٤)

---

(١) النكت فى اعجاز القرآن ص ٦٩ - ٧٠.
(٢) المصدر نفسه ص ٧٠
(٣) يوسف : ٨٢
(٤) البقرة : ١٨٩

ومنه ((**براءة من الله**))(١) ومنه ـ أى من الحذف ـ حذف الاجوبة ، وهى أبلغ من الذكر ، وما جاء منه فى القرآن كثير ، كقوله تعالى : ((**ولو أن قرآنا سيرت به الجبال ، أو قطعت به الارض ، أو كلم به الموتى**))(٢) **كأنه قيل :** لكان هذا القرآن ، ومنه ((**وسيق الذين اتقوا ربهم الى الجنة زمرا ، حتى اذا جاؤها ، وفتحت أبوابها**))(٣) كأنه قيل : حصلوا على النعيم المقيم الذى لا يشوبه التنغيص ، والتكدير ٠

ثم يعلل الرمانى بلاغة هذا النوع من الحذف فيقول : « وانما صار الحذف فى مثل هذا أبلغ من الذكر ، لان النفس تذهب فيه كل مذهب ، ولو ذكر الجواب لقصر على الوجه الذى تضمنه البيان ، فحذف الجواب فى قولك : « لو رأيت عليا بين الصفين » أبلغ من الذكر لما بيناه »(٤) ٠

وأما الايجاز بالقصر دون الحذف ، فهو أغمض من الحذف ، وان كان الحذف غامضا ، للحاجة الى العلم بالمواضع التى يصلح فيها من المواضع التى لا يصلح، فمن ذلك : ((**ولكم فى القصاص حياة**))(٥) ومنه : ((**وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها**))(٦) الخ ٠ ثم يعقد الرمانى مقارنة بين ايجاز القرآن ، وبين ما استحسنه العرب فى هذا الفن من كلامهم فيقول :

« وقد استحسن الناس من الايجاز قولهم : « القتل أنفى للقتل » وبينه وبين لفظ القرآن تفاوت فى البلاغة والايجاز ، وذلك يظهر من أربعة أوجه :

انه أكثر فى الفائدة ، وأوجز فى العبارة ، وأبعد من الكلفة ، بتكرير الجملة، وأحسن تأليفا بالحروف المتلائمة ٠

أما الكثرة فى الفائدة : ففيه كل ما فى قولهم : « القتل أنفى للقتل » وزيادة معان حسنة :

منها : ابانة العدل لذكره القصاص ، ومنها : ابانة الغرض المرغوب فيه لذكره الحياة ، ومنها : الاستدعاء بالرغبة ، والرهبة لحكم الله تعالى به ٠

---

(١) التوبة : ١
(٢) الرعد : ٣١
(٣) الزمر : ٧٣
(٤) النكت فى اعجاز القرآن ص ٧١
(٥) البقرة : ١٧٩
(٦) المنافقون : ٤

وأما الايجاز فى العبارة : فان الذى هو نظير « القتل أنفى للقتـل » قوله: « القصاص حياة » والاول أربعة عشر حرفا ، والثانى عشرة أحرف .

وأما بعده عن الكلفة بالتكرير الذى فيه على النفس مشقة ، فان فى قولهم: « القتل أنفى للقتل » تكريرا غيره أبلغ منه ، ومتى كان التكرير كذلك ، فهـو مقصر فى باب البلاغة عن أعلى طبقة . وأما الحسن بتأليف الحروف المتلائمة : فهو مدرك بالحس ، وموجود فى اللفظ ، فان الخروج من الفاء الى اللام ، أعدل من الخروج من اللام الى الهمزة ، لبعد الهمزة عن اللام ، وكذلك الخـروج من الصاد الى الحاء ، أعدل من الخروج ، من الالف الى اللام . فباجتماع هذه الامور التى ذكرناها ، صار أبلغ منه وأحسن ، وان كان الاول بليغا حسنا .

ثم يمضى الرمانى فى الكلام عن الايجاز من حيث أغراضه ، وفوائده ، وطرق التعبير به . ثم يختم الرمانى باب الايجاز هذا بتفضيل هذا اللون من أساليب الكلام ، على سائر أنواع البيان فيقول : « واذ قد عرفت الايجاز ، ومراتبه ، وتأملت ما جاء فى القرآن منه ، عرفت فضيلته على سائر الكلام ، وهو علوه على غيره من سائر الكلام ، وعلوه على غيره من أنواع البيان » .

ثم يشرع الرمانى فى تعديد فوائد الايجاز فيقول : « والايجـاز تهذيب الكلام بما يحسن به البيان ، والايجاز تصفية الالفاظ من الكدر ، وتخليصها من الدرن ، والايجاز البيان عن المعنى بأقل ما يمكن من الالفاظ ، والايجـاز اظهار المعنى الكثير باللفظ اليسير .. الخ » .

ولقد أكثر الرمانى من الحديث عن الايجاز كما رأينا ، فعرفه ، ووضـح أقسامه ، وبين فوائده وأسراره ، هادفا من وراء ذلك الى التدليل والبرهنـة على أن أسلوب القرآن فى أعلى رتب البلاغة كما ذكر ذلك فى أول الكتاب ، وأنه أسلوب فريد تقصر دونه قوى البشر ومن هنا وقع الاعجاز فيه .

ثم استطرد الرمانى فى ايراد الأمثلة القرآنيـة فى جميع شعب البـلاغة العشرة ، مشيرا أثناء ذلك الى جمال الاسلوب القرآنى ، وحسن استعماله لهذه الفنون البلاغية .

ولولا الاطالة لذكرت حديثه عن كل الأبواب البلاغة العشرة ، ولـكنى اكتفيت بحديثه عن الايجاز لابرهن به على حسن براعته ، وتمكنه من فهم بلاغة القرآن فهو يتناولها تناول المتذق لحلاوتها ، الفاهم لاسرارها ، الواقف على حقائقها ثم تحدث عن الاعجاز فى القرآن الكريم « الخطابى حمد بن ابراهيم ابن خطاب البستى المتوفى سنة ٣٨٨ هـ فى كتابه « بيان اعجاز القـرآن »

وهذا الكتاب عبارة عن استعراض وجمع لآراء العلماء فى بلاغة القـرآن ، ثم اثبات رأيه فى ذلك .

فقال مستعرضا آراء من سبقه من العلماء ناقدا لها ، عائبا أصحابها : « وزعم آخرون أن اعجازه - أى القـرآن - من جهة البلاغة ، وهم الاكثرون من علماء أهل النظر ، وفى كيفيتها يعرض لهم الاشكال ، ويصعب عليهم منه الانفصال . ووجدت عامة أهل هذه المقالة قد جروا فى تسليم هـذه الصـفة للقرآن على نوع من التقليد ، وضرب من غلبة الظن ، دون التحقيق له ، واحاطة العلم به ولذلك ساروا اذا سئلوا عن تحديد هذه البلاغة التى اختص بهـا القرآن الفائقة فى وصفها سائر البلاغات ، وعن المعنى الذى يتميز به عن سائر أنواع الكلام المعروف بالبلاغة قالوا : اننا لا يمكننا تصويره ، ولا تحديده بأمر ظاهر ، نعلم مباينة القرآن غيره من الكلام ، وانما يعرفه العالمون به عند سماعه ضربا من المعرفة لا يمكن تحديده »(١) .

ثم يستدل الخطابى على اعجاز القرآن بما تضمنه من التحدى للعـرب قاطبة « مدى عشرين سنة » والقرآن يسفه أحلامهم ، ويعيب آلهتهم ، فعجزوا عنه ، وانقطعوا دونه ، ولجأوا الى مناصبة العداء الذى أريقت بسببه الدماء ، وقطعت الارحام ، وذهبت الاموال .

ثم يعلل عجز البشر عن الاتيان بمثله بقوله : « وانما تعذر على البشر الاتيان بمثله لامور منها : أن علمهم لا يحيط بجميع أسماء اللغة العربيـة بألفاظها التى هى ظروف المعانى والحوامل ، ولا تدرك أفهامهم جميع معانى الاشياء المحمولة على تلك الالفاظ ، ولا تكمل معرفتهم لاستيفاء وجوه النظـوم التى بها يكون ائتلافها ، وارتباط بعضها ببعض ، فيتوصلوا باختيار الافضـل عن الاحسن من وجوهها الى أن يأتوا بكلام مثله ، وانما يقوم الكلام بهذه الاشياء الثلاثة : لفظ حامل ، ومعنى به قائم ، ورباط لها ناظم .

ثم يتحدث الخطابى عن بلاغة القرآن فيقول : « ان أجناس الكلام مختلفة ، ومراتبها فى نسبة التبيان متفاوتة ، ودرجاتها متباينة غير متساوية فمنهـا البليغ الرصين الجزل ، ومنها الفصيح القريب السهل ، ومنها الجـائز الطلق المرسل ، وهذه أقسام الكلام الفاضل المحمود ، دون النوع الهجين المذموم الذى لا يوجد فى شيىء منه ألبتة .

فالقسم الاول أعلى طبقات البلاغة وأرفعه ، والقسم الثانى أوسـطه وأقصده ، والقسم الثالث أدناه وأقربه ، فحازت بلاغات القرآن من كل قسم

---

(١) بيان اعجاز القرآن ص ٢٢

من هذه الاقسام حصة واحدة ، وأخذت من كل نوع من أنواعها شعبة ، فانتظم لها بامتزاج هذه الاوصاف نمط من الكلام يجمع صفتى الفخامة والعذوبة » ٠

وملخص رأى الخطابى أنه يرى أن اعجاز القرآن راجع الى جمال ألفاظه ، وحسن نظمه ، وسمو معانيه وأثره فى النفوس ولقد صرح بهذا فقـــال : « واذا تأملت القرآن وجدت هذه الامور فى غاية الشرف والفضيلة ، حتى لا ترى شيئا من الالفاظ أفصح ولا أجزل ، ولا أعذب من ألفاظه ، ولا ترى نظما أحسن تأليفا ، ولا أشد تلازما ، وتشاكلا من نظمه ، وأما المعانى فلا خفاء على ذى عقل أنها هى التى تشهد لها العقول بالتقدم فى أبوابها ، والترقى الى أعلى درجات الفضل من نعوتها ، وصفاتها وقد توجد هذه الفضائل متفرقة فى أنواع الكلام ، فأما أن توجد مجموعة فى كلام واحد منه فلم توجد الا فى كلام العليم القدير ، الذى أحاط بكل شيئ علما ، وأحصى كل شيئ عددا »(١) وقال أيضا : « ان الذى يوجد لهذا الكلام من العذوبة فى حس السامع ، والهشاشة فى نفسه ، وما يتحلى به من الرونق ، والبهجة ، التى يباين بهـا سائر الكلام ، حتى يكون له هذا الصنيع فى النفوس ، فتصلح من أجله الالسن على أنه كلام لا يشبهه كلام ، وتحصر الاقوال عن معارضته وتنقطع به الاطماع عنها أمر لابد له من سبب بوجوده ، يجب له هذا الحكم ، وبحصوله يستحق هذا الوصف »(٢) ٠

وقال : « وثمة وجه آخر من وجوه اعجاز القرآن قد أغفله الناس ، فلا يكاد يعرفه الا الشاذ من آحادهم ٠ وذلك هو صنيعة فى القلوب ، وتأثيره فى النفوس ، فانك لا تسمع كلاما غير القرآن منظوما ، ولا منثورا اذا قرع السمع، خلص له القلب من اللذة والحلاوة فى حال ، ومن الروعة والمهابة فى أخرى ، ما يخلص منه اليه ، تستبشر به النفوس ، وتنشرح له الصدور ، حتى اذا أخذت حظها منه عادت مرتاعة ، قد عراها من الوجيب ، والقلق ، وتغشـاها الخوف والفرق ٠ تقشعر منه الجلود ، وتنزعج له القلوب ، يحول بين النفس ومضمراتها ، وعقائدها الراسخة فيها »(٣) وقال : « فتفهم الآن ، وأعلم أن القرآن انما صار معجزا لانه جاء بأفصح الالفاظ ، فى أحسن نظوم التأليف ، مضمنا أصح المعانى »(٤) ٠

والخطابى لا يرد الاعجاز الى الناحية البلاغية فحسب ، ولكنه يعتبر هذه

---

(١) بيان اعجاز القرآن ص ٢٨
(٢) المصدر نفســه ص ٢٦
(٣) بيان اعجاز القرآن ص ٦٤
(٤) المصدر نفسه ص ٢٣ ــ ٢٤

الناحية وجها من وجوه الاعجاز فيه فهو يرى أن وجه الاعجاز فى القـرآن يتألف من عدة أمور مجتمعة هى : ما تضمنه القرآن من الاخبار عن الكوائن فى مستقبل الزمان ، نحو قوله تعالى : ((**ألم • غلبت الروم فى أدنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين**))(١) وكقوله تعـالى : ((**قل للمخلفين من الاعراب ستدعون الى قوم أولى بأس شديد**))(٢) • ويعقب هنا ـ الخطـابى فيقول : ((ولا يشك فى أن هذا ، وما أشبهه من اخباره نوع من أنواع اعجازه ولكنه ليس بالامر العام الموجود فى كل سورة من سور القرآن ، وقد جعـل سبحانه فى صفة كل سورة أن تكون معجزة بنفسها ، لا يقدر أحد من الخلق أن يأتى بمثلها ، فقال : ((**فأتوا بسورة من مثله ، وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين**))(٣) من غير تعيين ، فدل على أن المعنى فيه غير ما ذهبوا اليـه))(٦) •

والخطابى قد أورد هذا الوجه من وجوه اعجاز القرآن فى معرض رده على من اعتبر القرآن معجزا من هذه الناحية فحسب •

هذا ملخص رأى الخطابى فى اعجاز القرآن الكريم ، وقد عرضه عرضـا شيقا ، يدل على ذوق جميل ، وطبع سليم وفهم عميق لاساليب اللغة العربية، ومعرفة تامة بطرق التعبير فيها ، مكنته من تذوق حلاوة القرآن ، فأثر فى نفسه تأثيرا بليغا ، فعبر عن هذا التأثير بأجمل العبارات ، وجعله وجهـا من وجوه اعجازه ، الا أننى لاحظت عليه أثناء عرضى لرأيك أن هناك تقاربا فى الفكرة بينه وبين الرمانى وبخاصة فيما يتعلق بالناحية البلاغية ، فكلاهما قد قسم الكلام الى ثلاث مراتب ، ولكنهما افترقا فى أن الرمانى قد جعـل أعلى رتبة من رتب البلاغة للقرآن خاصة ، وقد عجز البشر عن الوصول اليها ، بينما الخطابى كان يرى أن القرآن قد أخذ من كل هذه الرتب الثلاث ، فحصل له بذلك نمط من الكلام يجمع صفتى الفخامة والعذوبة ، فكلا الرأيين متقاربان، ولكنه يصعب علينا معرفة أيهما أسبق بالفكرة من الثانى لانهما كانا متعاصرين، ولـما كانا كذلك فلابد والحالة هذه ـ أن يكون كل منهما قد أفاد من الآخر •

ثم تحدث عن الاعجاز فى القرآن الكريم بعد الخطابى ((القاضى أبو بكر محمد بن الطيب المعروف بالباقلانى)) المتوفى سنة ٤٠٣ هـ فى كتابه ((اعجاز القرآن)) ، وقد ألف هذا الكتاب ، ليرد به على منكرى الاعجاز فى عصره ، وقبل

---

(١) الروم : ١ ـ ٣
(٢) الفتح : ١٦
(٣) البقرة : ٢٣
(٤) بيان اعجاز القرآن ص ٢١

عصره ، وان من ينعم النظر فى كتابه يدرك أنه يرى ، أن القرآن معجز بأسلوبه ونظمه البديع ، وألفاظه ، وأثره فى النفوس ، ولذلك فاننا نراه فى هذا الكتاب يتعرض لكتاب « نظم القرآن » للجاحظ ، ويقرر أنه غير كاف للدلالة على بلاغة النظم ، لان الجاحظ لم يزد عما قاله المتكلمون قبله(١) • ونراه فى كتابه أيضا يستفيض فى الحديث عن نظم القرآن ، فيصف القرآن بأنه بديع النظم ، عجيب التأليف ، متناه فى البلاغة الى الحد الذى يعلم عجز الخلق عنه ، وأن أسلوب القرآن ونظمه خارجان عما ألفه العرب من أساليب كلامهم المنظوم ، والمنثور ، فهو ليس بالشعر ، ولا بالنثر ، ولا بالسجع ، وانما هو أسلوب انفرد به القرآن وحده • وفى هذا يقول :

« ان نظم القرآن على تصرف وجوهه ، وتباين مذاهبه ، خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم ، وله أسلوب يختص به ، ويتميز فى تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد • وذلك أن الطرق التى يتقيد بها الكلام البديع المنظوم ، تنقسم الى أعاريض الشعر على اختلاف أنواعه ، ثم أنواع الكلام الموزون ، غير المقفى ، ثم الى أصناف الكلام المعدل المسجع ثم الى معدل موزون غير مسجع ، ثم الى ما يرسل ارسالا ، فتطلب فيه الاصابة والافادة وافهام المعانى المعترضة على وجه بديع ، وترتيب لطيف ، وان لم يكن معتدلا فى وزنه ، وذلك شبيه بجملة الكلام الذى لا يتعمل فيه ، ولا يتصنع له ، وقد علمنا أن القرآن خارج عن هذه الوجوه ومباين لهذه الطرق ، ويبقى علينا أن نبين أنه ليس من باب السجع ولا فيه شىء منه ، وكذلك ليس من قبيل الشعر ، لان من الناس من زعم أنه كلام مسجع ، ومنهم من يدعى فيه شعرا كثيرا ، فهذا اذا تأمله المتأمل تبين – بخروجه عن أصناف كلامهم ، وأساليب خطابهم – أنه خارج عن العادة ، وأنه معجز ، وهذه خصوصية ترجع الى جملة القرآن ، وتميز حاصل فى جميعه »(٢) •

ونراه كذلك يفاضل بين أسلوب القرآن ، وبين غيره من أساليب العرب مبينا فضل القرآن على جميع هذه الاساليب شعرا ، ونظما فيقول : « ومنها – أى من الوجوه التى يباين فيها أسلوب القرآن أساليب العرب – أنه ليس للعرب كلام مشتمل على هذه الصفة ، والغرابة ، والتصرف البديع ، والمعانى اللطيفة والفوائد الغزيرة ، والحكم الكثيرة ، والتناسب فى البلاغة ، والتشابه فى البراعة على هذا الطول ، وعلى هذا القدر •

ومنها : أى من هذه الوجوه – أن عجيب نظمه ، وبديع تأليفه ، لا يتفاوت ولا يتباين ، على ما يتصرف اليه من الوجوه التى يتصرف فيها ، مع ذكر

(١) اعجاز القرآن ص ٦
(٢) اعجاز القرآن ص ٣٣ – ٣٥

قصص ومواعظ ، واحتجاج ، وحكم ، وأحكام واعذار ، انذار ، ووعد ووعيد ، وتبشير ، وتخويف ، وأوصاف ، تعليم أخـلاق كريمـة وشيم رفيعة ، وسير مأثورة ، وغير ذلك من الوجوه التى يشتمل عليهـا ، ونجد كلام البليغ الكامل والشاعر المفلق ، والخطيب المصقع يختلف على حسب اختلاف هذه الامور ٠

ومنهـا : أن كلام الفصحاء يتفاوت تفاوتا بينا فى الفصل والوصل ، والعلو والنزول ، والتقريب والتبعيد ، وغير ذلك مما ينقسم اليه الخطاب عند النظم ، ويتصرف فيه القول عند الضم والجمع ٠

ومنها : أن نظم القرآن وقع موقعـا فى البلاغة يخرج عن عادة كلام الجن ، كما يخرج عن عادة كلام الانس ، فهم يعجـزون عن الاتيـان بمثله كعجزنا ، ويقصرون دونه كقصـورنا ، وقد قال الله عز وجل : **((قل لئن اجتمعت الانس والجن ٠٠ الآية))(١)** ٠

ومنها : أن الذى ينقسم اليـه الخطاب من البسط والاقتصـاد ، والجمع والتفريق ، والاستعارة والتصريح ، والتجوز والتحقيق ، ونحو ذلك من الوجوه التى توجـد فى كلامهم موجودة فى القرآن ، وكل ذلك مما لا يتجـاوز حـدود كلامهم المعتـاد بينهم فى الفصـاحة والابداع والبلاغة ٠

ومنهـا : أن المعـانى التى تضمنها فى أصل وضع الشريعة ، والاحكام ، والاحتجاجات ، فى أصل الدين والرد على الملحدين ، على تلك الالفـاظ البديعة، وموافقة بعضها فى اللطف والبراعة ، مما يتعذر على البشر ، ويمتنع ٠

ومنها : أن الكلام يتبين فضـله ، ورجحان فصـاحته بأن تذكر منه الكلمة فى تضاعيف كلام ، أو تقذف ما بين شعر فتأخذها الأسماع ، وتتشـوف اليها النفوس ، ويرى وجه رونقهـا باديا غامرا سـائر ما تقرن به ٠ كالدرة التى ترى فى سلك من خرز ، وكاليا قوته فى واسطة العقد(٢) ٠

ومنها أن الحروف التى بنى عليها كلام العرب تسعة وعشرون حرفا ، وعدد السور التى افتتح فيها بذكر الحروف ثمان عشرون سورة ، وجملة ما ذكر من

---

(١) الاسراء : ٨٨

(٢) يريد بهذا أن يدلل على جودة نظم القرآن وسمو بلاغته بحيث اذا أخذت منه كلمة واستعملتها فى شعر أو نثر ، فانها تصير كالدرة فى وسـط العقد ، تسترعى الأنظار ، وتدهش العقول ، وتبهر الالباب ٠

هذه الحروف فى أوائل السـور من حروف المعجم نصف الجملة وهو أربعة عشر حرفا • ليدل بالمذكور على غيره ، وليعرفوا أن هذا الكلام منتظم من الحروف التى ينظمون بهـا كلامهم •

ومنها : أنه سهل سبيله ، خارج عن الوحشى المستكره ، والغريب المستنكر، وعن الصنعة المتكلفة ، وذلك جعله قريبا من الأفهام ، يبادر معناه لفظه الى القلب ، ويسـابق المغزى منه عبـارته الى النفس ،•

وهو ذلك ممتنع المطالب ، عسير المتنـاول ، غير مطمع مع قربه فى نفسه، ولاموهم مع دنوه فى موقعه أن يقـدر عليه ، أو يظفر به(٢) •

والباقلانى كالرمانى لا يرد اعجاز القرآن الى الناحية البلاغية فحسب وانما يجعل هذه النـاحية وجهـا من وجوه اعجـازه التى تتلخص عنـده فى ثلاثة أمور هى :

الاخبار عن الغيوب ، وأمية الرسـول صلى الله عليه وسلم التى تؤكد أنه لم يكن يعرف شيئا عن كتب الاولين ، وأقاصيصهم ، وسيرهم ، وما تضمنه القرآن من ذلك • ونظمه البديع العجيب •

هذا هو رأى البـاقلانى فى اعجاز القرآن ، وقد عرضه بأسلوب جميل فيه رقة الأديب الاريب ، ودقة العالم اللبيب ، فهو حين يحدثك عن نظم القـرآن يبهرك أسلوبه ، ويأسرك بيانه ، وتدهشك براعته فى التحليل وقدرته على ايراد الحجج والبراهين وحين يفاضل بين أسلوب القرآن وبين غيره من أساليب العرب تحس أنك أمام أديب قد بلغ القمة فى الفصاحة والبيان ، وعالم متمكن خبير ، لا يعوزه الدليل ، ولا يتأبى عليه التحليل •

وهو يتفق مع الرمانى فى فكرة الاعجاز البلاغى فى القرآن الكريم ، فكلاهما يجعل النـاحية البلاغية وجهـا من وجوه الاعجاز فى القرآن الكريم ، الا أنه بسط القول فى هذه النـاحية أكثر من الرمانى فبينما نراه يستفيض فى الحديث عن النظم فى القرآن مظهرا محاسـنه ومبرزا أسراره ومستخرجا دقائقه ، نرى الرمانى ينوه الى النظم القرآنى تنويهـا ويسميه « نقض العـادة » وبينما نرى الباقلانى يستفيض فى الحديث عن الموازنة بين أسـلوب القرآن وبين غيره من أساليب العرب ، نرى الرمانى يشـغل نفسه بالحديث عن المقـارنه بين بعض النواحى البلاغية فى القرآن الكريم وبينهـا فى أسـاليب العرب كالمقارنة بين الايجاز فى القرآنالكريم وبينه فى أساليب العرب ، وهذا وان كان عملا مشكورا من الرمانى الا أنه لا يصـل به الى ما وصـل اليه الباقلانى •

---

(١) اعجاز القرآن ص ٢٦ وما بعدها •

وقد لاحظت على الباقلانى أثنـاء عرضه لرأيه فى اعجاز القرآن الأمانة العلمية فهو يعترف بأنه استفاد من دراسـات السـابقين فى هذا المجـال • يستبين هذا من قوله فى صدر كلامه عن الاعجاز : « وقد ذكر أصحابنا وغيرهم » ففى هذه العبـارة اعتراف من الباقلانى بأنه استفاد من الدراسات السـابقة فى الاعجاز ، وهذا الاعتراف لا يقلل من جهوده فى هذا المجال فهو وان كان قد استفاد من دراسـات السـابقين الا أننا لا ننكر فضـله وجهده فى اخراج هذه الدراسـات والكشف عن حقيقة الاعجاز القرآنى وابرازها للعيـان بما أقـام لها من الشواهد القرآنية والأدبية وبما أضفاه عليهـا من الرونق والبهجـة بحسن بيـانه وعميق فهمه •

ثم تحدث عن الاعجاز فى القرآن الكريم « الشريف الرضى » المتوفى سنة ٤٠٦ هـ فى كتابه « تلخيص البيـان فى مجازات القرآن » وان النـاظر فى كتابه هذا يرى أنه يرد اعجاز القرآن الى جمال ألفـاظه ، وأسلوبه البديع ، ومجازه العجيب، وقوة تأثيره فى النفس الانسـانية ، وكون ألفـاظه موحية بمعانيه ، ومعانيه خادمة لأهدافه ومقاصده ، ويستبين هذا من تعليقه على قوله تعالى: **« والذين تبؤوا الـدار والايمـان من قبلهم »** (١) « المعنى أنهم اسـتقروا فى الأوطان ، وهذا من صميم البلاغة ولباب الفصاحة ، وقد زاد اللفظ المسـتعار هنا معنى الكلام رونقـا ، ألا ترى كم بين قولنـا استقروا فى الايمان ، وبين قولنـا تبؤوا الايمـان »(٢) •

ويستبين أيضـا من حديثه المستفيض عن المجاز فى القرآن الكريم ، فقد تناول فى كتابه السالف الذكر المجـاز فى القرآن كله ، فكان يعرض لكل سورة من سوره مستخرجا منهـا الآيات التى فيهـا مجاز بيـانى ، ويكشف عما فيها من وجوه المجـاز ، والاستعارة ، والبيـان ، موضحا معانى الكلمات ، مستشهدا بالكثير من الأبيات الشعرية والنوادر الابية ، مشيرا الى ما فى الآيات من القراءات القرآنية ، موردا الجم الكثير من الامثال العربية ، حتى ان النـاظر فى كتابة يعتبره معجم لغة ، وديوان أدب ، ومجمع نوادر ، وكتاب بلاغة •

ولقد بين كثيرا من غرائب آيات القرآن، وأوضح طائفة من غوامض أسراره وكشف عن بدائع متشابهاته ، وأبان عن لطائف تأويله ، وعبر عن سر اعجازه فخدم العربية والقرآن وفنون اللغة •

وهو لا يقصـد بالمجاز فى القرآن الكريم المجاز اللغوى المصطلح عليه عنـد

---

(١) الحشر : ٩

(٢) تلخيص البيان تحقيق محمد عبد الغنى حسن ط • عيسى الحلبى سنة ١٩٥٥ م ص ١٠٤

علماء البيان ، وانما يطلق كلمة مجاز على معنى أعم يشمل المجاز العقلى واللغوى ، والتشبيه جملة ، ويسببين هذا بعرض بعض المجازات التى أشار اليها فى كتابه ، فمنها أنه أورد قوله تعالى : ((**وأسأل القرية التى كنا فيها ، والعير التى أقبلنا فيها**))(١) ٠

وعلق عليه بقوله : ((وهذه استعارة ، من مشاهير الاستعارات ، والمراد وأسأل أهل القرية التى كنا فيها ، وأصحاب العير التى أقبلنا فيها))(٢) وهذه ليست استعارة على طريقة المتأخرين من علماء البيان وانما هى مجاز مرسل علاقته المحلية ، أو ايجاز بالحذف ٠

كذلك نراه يورد من الشواهد قوله تعالى : ((**فكيف تتقون ان كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا**))(٣) ويعلق عليه بقوله : ((وهذه استعارة ، والمراد بها أن الولدان الذين هم الاطفال لو جاز أن يشيبوا لرائع خطب أو طارق كرب لشابوا فى ذلك اليوم ، لعظيم أهواله ، وفظاعة أحواله ، وذلك كقول القائل ، قد لقيت من هذا الامر ما تشيب منه كناية عن فظيع ما لاقى ، وعظيم ما قاسى))(٤) ٠

والاية على طريقة المتأخرين من علماء البيان ليست من قبيل الاستعارة، وانما هى من قبيل المجاز العقلى من باب استناد الفعل الى زمنه ، وكذلك نراه يورد من الآيات قوله تعالى : ((**خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب**))(٥) ويعلق عليه بقوله : ((وهذه استعارة)) وحقيقة هذا الماء أنه مدفوق لا دافق ، ولكنه خرج على مثل قولهم ((سر كاتم ، وليل نائم))(٦) ٠

والآية ليست من قبيل الاستعارة على طريقة المتأخرين من علماء البيان ، وانما هى كسابقتها من قبيل المجاز العقلى ٠

هذا ملخص رأى الشريف الرضى فى اعجاز القرآن البلاغى ، وقد عرضه عرضا حسنا ، الا أنه يلاحظ عليه أنه يجعل المجاز وجها من وجوه الاعجاز

---

(١) يوسف : ٨٢

(٢) تلخيص البيان تحقيق محمد عبد الغنى حسن ط ٠ عيسى الحلبى سنة ١٩٥٥ م ص ٣٥٢

(٣) المزمل : ١٧

(٤) تلخيص البيان تحقيق محمد عبد الغنى حسن ص ١٧٣ ط ٠ عيسى الحلبى سنة ١٩٥٥ م ٠

(٥) الطارق : ٥ ـ ٧

(٦) تلخيص البيان تحقيق محمد عبد الغنى حسن ص ٣٥٢ ط ٠ عيسى الحلبى سنة ١٩٥٥ م ٠

فى القرآن الكريم ، وهذا أمر لا نوافقه عليه ، لان المجاز فى القرآن ليس محل اتفاق بين العلماء ، فمنهم من أجازه ، ومنهم من أنكره ، والكثيرون من العلماء على انكاره فى القرآن الكريم ، وحتى من أجازه منهم لم يجزه على اطلاقه ، واذا كان كذلك فلا يحسن أن يكون وجها من وجوه الاعجاز فى القرآن الكريم ، اللهم الا اذا أراد من المجاز فى القرآن الكريم الصورة البيانية الشاملة لجميع ألوان البيان العربى كما هو واضح من تعليقه على بعض الآيات التى أوردها ٠

ثم تحدث عن الاعجاز فى القرآن الكريم بعد ذلك « الامام عبد القاهر الجرجانى » المتوفى سنة ٤٧١ هـ ٠

فألف فى الاعجاز فى القرآن الكريم كتابين هما « الرسالة الشافية »(١) و « دلائل الاعجاز » وان الناظر فى هذين الكتابين يرى أن عبد القاهر يرجع الاعجاز فى القرآن الكريم الى نظمه فقط ، فهو الوجه الوحيد عنده الذى من جهته كان الاعجاز فى القرآن الكريم ٠

وقد صرح بهذا فقال متسائلا : « ماذا أعجز العرب ؟ وعن ماذا عجزوا ؟ أعن معان من دقة معانيه وحسنها وصحتها فى العقول ؟ أم عن ألفاظ مثل ألفاظه ٠ ثم يعود عبد القاهر فيجيب عن ذلك بقوله : أعجزتهم مزايا ظهرت لهم فى نظمه ، وخصائص صادفوها فى سياق لفظه ، ومبادىء راعتهم من مبادىء آيه ، ومقاطعها ، ومجارى ألفاظه ، ومواقعها ، وفى مضرب كل مثل ومساق كل خبر ، وصورة كل عظة وتنبيه واعلام ، وترغيب فى كل حجة وبرهان، وصفة بيان ، وبهرهم أنهم تأملوه سورة سورة وعشر عشرا ، وآية آية ، فلم يجدوا فى الجميع كلمة ينبو بها مكانها ، ولفظه ينكر شأنها ، أو يرى أن غيرها أصلح مكانا أو أشبه ، أو أحرى وأخلق ، بل وجدوا اتساقا بهر العقول ، وأعجز الجمهور ، ونظاما والتئاما ، واتقانا ، واحكاما ، لم يدع فى نفس بليغ منهم ، ولوحك بيافوخة السماء موضع طمع ، حتى خرست الالسن عن أن تدعى وتقول ، وخلدت القروم فلم تملك أن تصول »(٢) ولما كان النظم هو الوجه الوحيد الذى حصل الاعجاز من جهته عند عبد القاهر فاننا نراه يهتم به اهتماما عظيما ويفصل الكلام فيه فيكشف عن حقيقته ، ويبين مقوماته، وأصوله ، فيعقد له فصلا خاصا فى كتابه « دلائل الاعجاز » وانا من يقرأ كلامه فى هذا الفصل يدرك أنه يريد بالنظم تلاؤم المعانى فى الكلمات المفردة تلاؤما يساعد على أداء المعنى العام المقصود فى جمال وقوة وأن هذا التلاؤم انما يتم بفضل علم النحو ٠ وفى هذا يقول : « واعلم أن ليس النظم الا أن

---

(١) طبعت ضمن ثلاث رسائل فى اعجاز القرآن ، بتحقيق الدكتورين : محمد خلف الله أحمد ، ومحمد زغلول سلام ٠

(٢) دلائل الاعجاز ص ٢٨ — ٢٩

تضع كلامك الوضع الذى يقتضيه علم النحو ، وتعمل على قوانينه وأصوله ، وتعرف مناهجه التى نهجت ، فلا تزيغ عنها ، وتحفظ الرسوم التى رسمت فلا تخل بشىء منها »(١) ويقول أيضا : « هذا وأمر النظم فى أنه ليس شيئا غير توخى معانى النحو فيما بين الكلم ، وأنك ترتب المعانى أولا فى نفسك ، ثم تحذو على ترتيبها الالفاظ فى نطقك »(٢) .

ثم نراه فى هذا الفصل يفرق بين نظم الحروف ، والكلمات فيقرر أن نظم الحروف انما يكون بحسب تواليها فى النطق ، ونظم الكلمات انما يكون بترتيبها على حسب ترتيب المعانى فى النفس ، وفى هذا يقول : « ان نظم الحروف يأتى بحسب تواليها فى النطق ، وليس نظمها — أى الحروف — بمقتضى عن معنى ، ولا الناظم لها بمقتضى فى ذلك رسما من العقل اقتضى أن يتحرى فى نظمه لها ما تحراه ، وأما نظم كلم فليس الأمر فيه كذلك ، أى كنظم الحروف لانك تقتفى فى نظمها آثار المعانى ، وترتيبها على حسب ترتيب المعانى فى النفس ، فهو اذن نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض ، وليس هو النظم الذى معناه ضم الشىء الى الشىء كيف جاء واتفق . وكذلك كان عندهم نظيرا للنسج والتأليف ، والصياغة ، والبناء ، والوشىء ، والتحبير ، وما أشبه ذلك مما يوجب اعتبار الأجزاء بعضها مع بعض حتى يكون لوضع كل حيث وضع علة تقتضى كونه هناك ، وحتى لو وضع فى مكان غيره لم يصلح »(٣) .

ثم يقرر عبد القاهر أن المعانى هى الاساس الذى يجب أن يراعى عند نظم الكلام ، ثم تأتى الالفاظ لتستوعب هذه المعانى . وفى هذا يقول : « وانك اذا فرغت من ترتيب المعانى فى نفسك ، لم تحتج الى أن تستأنف فكرا فى ترتيب الالفاظ ، بل تجدها تترتب لك بحكم أنها خدم للمعانى وتابعة لها ولا صقة بها ، وان العلم بمواقع المعنى فى النفس ، علم بمواقع الالفاظ الدالة عليها فى النطق . واعلم أنك اذا راجعت نفسك علمت علما لا يعترضه الشك ألا نظم فى الكلم ، ولا ترتيب حتى يعلق بعضها ببعض ويبنى بعضها على بعض ، وتجعل هذه بسبب تلك »(٤) .

ونراه فى هذا الفصل أيضا يقرر أنه لا سبيل للوصول الى معرفة وجه الاعجاز فى القرآن الا باستقراء كلام العرب ، وتتبع أشعارهم ، ودراستها دراسة نقدية ، وفى هذا يقول : « وصح ألا غنى بالعاقل عن معرفة هذه

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٥٥
(٢) المصدر نفسه ص ٢٨٤
(٣) دلائل الاعجاز ص ٣٥
(٤) المصدر نفسه ص ٣٨

الوجوه ، والوقوف عليها ، والاحاطة بها ، وأن الجهة التى منها يقف ، والسبب الذى به يعرف استقراء كلام العرب ، وتتبع أشعارهم ، والنظر فيها » .

ثم طبق الجرجانى ما دعا اليه ، فعقد موازنات بين الشعراء الذين تناولوا موضوعا معينا ، وذلك فى كتابيه « دلائل الاعجاز » و « والرسالة الشافية »(١) .

ثم يطلب عبد القاهر من الباحث عن الاعجاز فى القرآن الكريم أن يكد ذهنه ، ويطلب بنفسه المزايا والخصائص التى امتاز بها نظم القرآن الكريم، ليقف عليها ، لا أن يقلد فى ذلك ، فيجرى وراء من سبقه فى هذا الباب فيقول بعد أن يذكر طرفا من خصائص ومزايا نظم القرآن الكريم :

« فبنا أن ننظر أى شيىء أشبه بالفتى فى عقله ودينه ، وأزيد له فى عمله، ويقينه ، أأن يقلد فى ذلك ؟ ، ويحفظ متن الدليل ، وظاهر لفظه ، ولا يبحث عن تفسير المزايا والخصائص ما هى ؟ ومن أين كثرت الكثرة العظيمة ، واتسعت الاتساع المجاوز لوسع الخلق ، وطاقة البشر ؟ وكيف يكون أن تظهر ألفاظ محصورة ، وكلم معدودة معلومة ؟ ، بأن يؤتى ببعضها فى أثر بعض ، لطائف لا يحصرها العدد ، ولا ينتهى بها الامد ، أم أن يبحث عن ذلك كله ، ويستقصى النظر فى جميعه ، ويتتبعه شيئا شيئا ، ويستقصيه بابا فبابا . حتى يعرف كلا منها بشاهده ودليله ، ويعلمه بتفسيره ، وتأويله ويوثق بتصويره وتمثيله لا كمن قيل فيه :

يقولون أقوالا ولا يعلمونها
ولو قيل هاتوا حققوا لم يحققوا(٢)

هذا هو رأى عبد القاهر فى اعجاز القرآن وملخصه أن اعجاز القرآن يعتمد على النظم ، والتأليف . والنظم عنده ليس تأليف الحروف والكلمات كل بحسب مخارجها وانما النظم عند الجرجانى هو ترتيب المعانى أولا ثم تأتى الالفاظ لتستوعب هذه المعانى ، والنظم هذا لابد أن يخضع لقواعد النحو وأصوله .

ولم يكن عبد القاهر أول من جعل النظم وجها لاعجاز القرآن ، وانما هو مسبوق بذلك ، فقد سبقه اليه الاصفهانى فقد قال فى تفسيره فى معرض كلامه عن الاعجاز « فظهر من هذا أن الاعجاز المختص بالقرآن يتعلق بالنظم المخصوص . وبيان كون النظم معجزا يتوقف على بيان نظم الكلام . ثم بيان

---

(١) الرسالة الشافية ص ١٢٦ ـ ١٢٧ من كتاب ثلاث رسائل فى اعجاز القرآن ، ودلائل الاعجاز ص ٣٤

(٢) دلائل الاعجاز ص ٢٩ والبيت لأنس بن أنيس « الكامل للمبرد جـ ١ ص ٣١٦ هـ . نهضة مصر » .

أن هذا النظم مخالف لنظم ما عداه(١) • ثم يقسم الاصفهانى الكلام الى خمس مراتب ويقصد بها أنواع الكلام من حيث المنظوم والمنثور ، والمسجوع ، والمحاورة ، والرسالة ، وغير ذلك فيقول : « والقرآن جامع لمحاسن الجميع على نظم غير نظم شئ منها • يدل على ذلك أنه لا يصح أن يقال له : رسالة أو خطابة ، أو شعر ، أو سجع ، كما يصح أن يقال : هو كلام • والبليغ اذا قرع سمعه فصل بينه وبين ما عداه من النظم ، ولهذا قال تعالى : **((انه لكتاب عزيز ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه))(٢)** تنبيها على أن تأليفه ليس على هيئة نظم يتعاطاه البشر ، فيمكن أن يغير بالزيادة والنقصان كحالة الكتب الاخرى »(٣) •

وسبقه اليه أيضا « الرمانى » و « الباقلانى » كما رأينا • الا أن عبد القاهر وان كان يتفق معهما فى فكرة الاعجاز الا أنه يختلف عنهما فى أنه جعل النظم الوجه الوحيد لاعجاز القرآن ورفض جميع ما عداه من الوجوه أما هما فقد جعلا النظم وجها من وجوه الاعجاز وعبد القاهر وان كان مسبوقا بهذا الوجه _ أعنى النظم » الا أن دراسته له كانت أوسع وأشمل وأعمق من دراسة السابقين له ، فقد توسع فى الكلام عنه ، فقدم لنا بحوثا بلاغية قيمة ، وفتح آفاقا جديدة فى دراسة الاسلوب تعتمد على الذوق الفنى ، والنقد العلمى ، لا على التقليد •

ثم تحدث عن الاعجاز فى القرآن الكريم بعد عبد القادر الجرجانى « ابن أبى الاصبع المصرى » المتوفى سنة ٦٥٤ هـ فقد ألف فى اعجاز القرآن كتابين هما : « البرهان فى اعجاز القرآن » و « بديع القرآن » والثانى تتمة للاول كما أشار الى ذلك فى مقدمة كتابه فقال : « كتاب بديع القرآن الذى هو تتمة للاعجاز المترجم « ببيان البرهان » أفردته من كتاب هو وظيفة عمرى(٤) ويقصد بالكتاب « تحرير التحبير » لانه هو الذى اختصر منه « بديع القرآن » وكتابه « البرهان » من الكتب المفقودة التى لم تصل اليها أيدى الباحثين بعد ، اذن فليس لدينا من المصادر ما نعتمد عليه فى الكشف عن رأيه فى الاعجاز سوى كتابه « بديع القرآن ، وان الباحث اذا أنعم النظر فى هذا الكتاب ، يتضح له أن ابن أبى الاصبع يرجع السر فى اعجاز القرآن الكريم الى ما اشتمل عليه أسلوبه من الحلى البديعية البعيدة عن التكلف ، والتعمل ، والصنعة ، أو بعبارة أدق الى النظم البديعى البرئى من التكلف والصنعة ، فهو يرى أن نظم القرآن البديعى دونه كل نظم ، وأنه امتاز بميزات وخصائص

---

(١) الاتقان للسيوطى جـ ٢ ص ١٢٠
(٢) فصلت : من الآية : ٤١ ، ٤٢
(٣) الاتقان للسيوطى جـ ٢ ص ١١٩ _ ١٢٠
(٤) بديع القرآن ص ٣ تحقيق المرحوم الدكتور حنفى شرف •

لا يوجد لها مثيل فى كلام صفوة البشر من البلغاء ، والادباء ، ودهاقين **الكلام** ، وأنهم لا يستطيعون الاتيان بمثل نظم القرآن حتى يلج الجمل فى سم الخياط ، فهذا النظم قد حوى صفات الادب الخالدة ، ومميزاته النفسية فالقرآن اذا تحدث حرك المشاعر ، وهز العواطف ، وأسال الدموع من العيون ووصل معناه الى قلبك ، قبل أن يصل لفظه الى أذنك ، واذا صور أذهل العقول ، وأتى بالعجب العجاب ، وجسم المعانى ، فسهل على البشر ادراكها ، استمع اليه حين يصور الندم وعذاب الضمير فيقول : ((يا حسرتى على ما فرطت فى جنب الله)) ويقول : **((ويوم يعض الظالم على يديه ، يقول يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا ، يا ويلتى ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا ، لقد أضلنى عن الذكر بعد اذ جاءنى ، وكان الشيطان للانسان خذولا)) (١)** ، واستمع اليه حين يصور لك النار وعذابها فيقول : **((يوم نقول لجهنم هل امتلأت ، وتقول هل من مزيد))**(٢) ويقول : **((اذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا))**(٣) ويقول : **((تكاد تميز من الغيظ))** ، واستمع اليه حين يصور لك موقف الاحتضار ، وما يدور بخلد المحتضر من الفراق ، والتفاف الأهل والاحبة حوله فيقول : **((كلا اذا بلغت التراقى ، وقيل من راق ، وظن أنه الفراق ، والتفت الساق بالساق الى ربك يومئذ المساق))** (٥) واستمع اليه حين يصف ، فيستقصى جميع الصفات والجوانب فيقول : **((أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب ، تجرى من تحتها الانهار ، له فيها من كل الثمرات ، وأصابه الكبر ، وله ذرية ضعفاء ، فأصابها اعصار فيه نار فاحترقت))(٦)** .

الى غير ذلك من الصور التى يقف أمامها أساطين البيان مذهولين ، متعجبين عاجزين .

من أجل ذلك اهتم ابن أبى الاصبع ببديع القرآن ، فغاص فى بحار القرآن الكريم باحثا ومنقبا عن جواهره ، ولالئه ، كاشفا عن روعتها وسحرها ، موضحا أثرها فى نظمه ، وما تضيفه على أسلوبه من الحسن والجمال ، وعلى معناه من القوة التى تسيطر على النفس الانسانية ، وتستولى على أحاسيسها ومشاعرها ، ولقد فتن بذلك ، حتى استطاع أن يستخرج الجم الكثير من الالوان البديعية من القليل من الالفاظ القرآنية ، ولم يكتف باستخراج هذه

---

(١) الفرقان : ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨
(٢) ق : ٢٩
(٣) الفرقان : ١١
(٤) الملك : ٧
(٥) القيامة : ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨
(٦) البقرة : ٢٦٥ ، ٢٦٦

الألوان ، بل قارن بين النظم البديعى فى القـرآن ، والنظم البديعى فى كلام العرب ، ليثبت لنـا الاعجاز فى القرآن الكريم ، عن طريق هـذا النظم البديعى الذى فاق كل نظم ، ومن غوصه على البديع فى القرآن ما ذكره فى باب «الابداع» فقد أتى بقوله تعـالى : « **وقيل يا أرض ابلعى ماءك ، ويا سماء أقلعى ، وغيض** المـاء ، وقضى الامر ، واستوت على الجودى ، وقيل بعدا للقوم الظالمين »(١)

واستخرج من هذه الآية الكريمة التى يبلغ عدد ألفـاظها سبع عشرة لفظة أحدا وعشرين ضربا من البديع وبينها فقال : « وتفصيل ما جاء فيهـا من البديع « المناسبة التـامة » فى « ابلعى ، وأقلعى » « والمطابقة اللفظية » فى ذكر السماء والارض « والاستعارة » فى قوله : « ابلعى ، وأقلعى » للارض والسماء ، « والمجاز » فى قوله : « يا سماء » فان الحقيقة « ويا مطر السماء أقلعى » « والاشـارة » فى قوله : « وغيض المـاء » فانه سبحانه عبر بهـاتين اللفظتين عن معان كثيرة ، لان المـاء لا يغيض حتى يقلع مطر السماء ، وتبلع الأرض ما يخرج من عيون المـاء ، فينقص الحاصل على وجه الارض ، من الماء « والارداف » فى قوله « واسـتوت على الجودى » فانه عبر عن استقرار السفينة على هذا المكان ، وجلوسها جلوسـا متمكنا ، لا زيغ فيه ، ولا ميل ، لطمأنينة أهل السفينة بلفظ قريب ، من لفظ الحقيقة ، « والتمثيل » فى قوله « وقضى الامر » فانه عبر بذلك عن هلاك الهالكين ، ونجـاة الناجين بلفظ فيه بعد ما من لفظ الحقيقة بالنسبة الى لفظ الارداف ، والتعليل ، لأن غيض المـاء علة الاستواء ، « وصحة التقسيم » حيث استوعب سبحانه أقسـام أحوال المـاء حالة نقصـه ، اذ ليس الا احتباس ماء السماء ، واحتقان المـاء الذى ينبع من الارض ، وغيض المـاء احاصل على ظهر الارض ، « والاحتراس » فى قوله: « وقيل بعدا للقوم الظالمين » محترسا من توهم من يتوهم أن الهلاك ربما عم من لا يستحق الهلاك ، فجـاء سبحانه بالدعاء على الهـالكين ليعلم أنهم مستحقوا الهلاك ، فان عدله منع أن يدعوا على غير مستحق للدعـاء عليه .

« والانفصـال » فان لقـائل أن يقول : ان لفظة « القوم » مستغنى عنهـا ، فانه لو قيل : « وقيل بعدا للظالمين » لتم الكلام ، والانفصـال عن ذلك ، أن يقـال : لمـا سبق فى صدر الكلام قبل الآية قوله : « وكلمـا مر عليه ملا من قومه سـخروا منه » وقال سبحانه قبـل ذلك مخاطبـا لنوح عليه السـلام « ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا انهم مغرقون » فاقتضت البلاغة أن يؤتى بلفظة القوم التىآلة التعريف فيهـا للعهـد ، ليتبين أنهم القوم الذين تقـدم ذكرهم فى قوله ، « وكلمـا مر عليه ملا من قومه » ووصفهم بالظلم ، وأخبر بسـابق علمه أنهم هالكون ، بقوله : « ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا انهم مغرقون » .

---

(١) هود : ٤٤

فحصل الانفصال عن الاشكال ، وعلم أن لفظه « القوم » ليست فضلة في الكلام • « والمساواة » لان لفظ الآية لا يزيد على معناه ، ولا ينقص عنه ، « وحسن النسق » فى عطف القضايا بعضها على بعض بأحسن ترتيب حسبما وقعت أولا فأولا ، فانه سبحانه أمر الارض بالابتلاع ، ثم عطف على ذلك أمر السماء بالاقلاع ، ثم عطف غيض الماء على ذلك ، ثم عطف على ذلك قضاء الامر بهلاك الهالكين ، ونجاة الناجين ، ثم عطف على ذلك استواء السفينة على الجودى ، ثم عطف على ذلك الدعاء على الهالكين ، فجاء عطف هذه الجمل على ترتيب وقوعها فى الوجود ، « وائتلاف اللفظ مع المعنى » لكون كل لفظة لا يصلح فى موضعها غيرها « والايجاز » لانه سبحانه قص القصة بلفظها مستوعبة بحيث لم يخل منها بشىء فى أخصر عبارة بألفاظ غير مطولة « والتسهيم » لان من أول الآية الى قوله تعالى : « اقلعى » يقتضى آخرها • « والتهذيب » لان مفردات الالفاظ موصوفة بصفات الحسن ، كل لفظة سهلة مخارج الحروف ، عليها رونق الفصاحة ، مع الخلو من البشاعة ، والتركيب سليم من التعقيد ، وأسبابه •••

« وحسن البيان » من جهة أن السامع لا يتوقف فى فهم معنى الكلام ، ولا يشكل عليه شىء منه •

« والتمكين » لان الفاصلة مستقرة فى قرارها ، غير قلقة ولا مستدعاة ، « والانسجام » وهو تحدر الكلام بسهولة ، وعذوبة سبك مع جزالة لفظ ، « والابداع » اذ فى كل لفظة بديع وبديعان ، • ثم بعد أن بين ما فى الاية الكريمة من ألوان البديع علق عليها بقوله :

« فانظر رحمك الله الى عظمة هذا الكلام ، وما انطوى عليه نظمه ، وما تضمنه لفظه لتقدره قدره »(١) •

ومن غوصه على بديع القرآن ما ذكره فى باب « صحة المقابلات » فانه أتى بقوله تعالى « ومن رحمته أن جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ، ولتبتغوا من فضله »(٢) ثم استخرج من بعض هذه الآية كثيرا من الالوان البديعية ، ووضح أثرها فى النظم ، وهذه الالوان هى : « المطابقة » بين الليل، والنهار ، والسكون ، وابتغاء الفضل ، و « التعليل » فى قوله سبحانه « لتسكنوا ، ولتبتغوا » • « والارداف » فى قوله « ولتبتغوا من فضله » فلفظ الحقيقة « ولتتحركوا » لكن القرآن عدل عنه الى لفظ هو ردفه ، وتابعه وهو « ولتبتغوا من فضله » ثم بين السبب فى عدول القرآن عن لفظ الحقيقة

---

(١) بديع القرآن ص ٣٤٠ — ٣٤٣ تحقيق المرحوم الدكتور حنفى شرف •
(٢) القصص : ٧٣

الى الارداف فقال : « والذى أوجب العدول عن لفظ الحركة الى « ابتغاء الفضل » كون الحركة لمصلحة ، ولمفسدة ، وابتغاء الفضل حركة للمصلحة دون المفسدة ، والآية سيقت للاعتداد بالنعم فوجب العدول عن لفظ الحركة الى لفظ هو ردفه وتابعه ، ليتم حسن البيان • « وحسن البيان لمجىء الكلام فيها متلاحما آخذة أعناق بعضه ببعض • « وحسن النسق » فالجمل قد عطف بعضها على بعض بأحسن ترتيب «والاشارة» لأن القول الكريم على قلة ألفاظه قد أشار ، وألمح الى كثير من المنافع ، والمصالح « والائتلاف » فألفاظ القول الكريم مؤتلفة مع معناه أتم ائتلاف وأحسنه »(١) •

وفى باب « صحة التفسير » يسوق قوله تعالى : **« سبحان الذى خلق الازواج كلها مما تنبت الارض ومن أنفسهم ، ومما لا يعلمون »**(٢) ثم يقف أما النص الكريم متأملا ، مفكرا ، معجبا ، ثم يغوص فى قاعة ، فيستخرج لنا من اللالىء البديعية ما يبهر ، ويعجز فيقول : « فأتت صحة التفسير فى هذه الآية مقترنة بصحة التقسيم ، واندمج فيهما الترتيب ، والتهذيب ، وحصل الائتلاف بحصول الترتيب ، اذ قدم سبحانه النبات ، وانتقل على طريق البلاغة المرضى فى النظم الى الأعلى ، فثنى بأشرف الحيوان ، ليستلزم ذكره بقية الحيوان ، ثم ثلث بقوله : « ومما لا يعلمون » فانتقل من الخصوص الى العموم ، ليدخل تحت هذا العموم كلما اختص الخالق سبحانه وتعالى بعملة من المولدات الثلاث من مجهول النبات ، والحيوانات ، والجمادات ، وسائر المخلوقات ، من كل موجود سواه سبحانه ، فحصل الترقى فى النظم على سنن الفصاحة ، والمشى على نهج البلاغة ، وأتت الفاصلة فى غاية التمكين »(٣) •

وفى باب « صحة التفسير » أيضا يسوق من الشواهد قوله تعالى : « والله خلق كل دابة من ماء ، فمنهم من يمشى على بطنه ، ومنهم من يمشى على رجلين ، ومنهم يمشى على أربع »(٤) •

ثم يسرد ما اشتمل عليه النص الكريم من الالوان البديعية ، ويستفيض فى شرحها ، موضحا أثرها فى النظم ، فيقول : « فذكر سبحانه الجنس الأعلى ، مقدما له حيث قال : « كل دابة » فاستغرق أجناس كل ما دب ، ودرج ، ثم فسر هذا الجنس الاعلى بالاجناس المتوسطة والانواع حيث قال : « فمنهم » و « منهم » مراعيا الترتيب ، اذ قدم ما يمشى بغير آلة لكون الآية سيقت لبيان القدرة ، والتمدح بها ، وتعجب السامع منها ، وما يمشى بغير آلة

---

(١) بديع القرآن ص ٧٣ ـ ٧٤ تحقيق المرحوم الدكتور حنفى شرف •
(٢) يس : ٣٦
(٣) بديع القرآن ص ٧٦ ـ ٧٧ تحقيق المرحوم حنفى شرف •
(٤) النور : ٤٥

أعجب مما يمشى بآلة فلذلك اقتضت البلاغة تقديمه ، ثم ثنى بالافضل فالافضل، فأتى بما يمشى على رجلين ، وهو الانسان والطائر ، لتمام خلق الانسان ، وكمال حسن صورته ، وهيئته المقتضية تخصيصه بالعقل ولما فى الطائر من عجب الطيران فى الهواء ، الدال على غاية الخفة ، ونهاية اللطف ، مع ما فيه من كثافة الارضية ، وثلث بما يشى على الاربع لانه أحسن الحيوان ، وأقواه ، تغليبا له على ما يمشى على أكثر من الاربع ، من الحشرات ، فاستوعب جميع الاقسام ، وأحسن الترتيب قارنا للتقسيم والترتيب فى صحة التفسير ، الى ما تضمنت هذه الكلمات التى هى بعض آية من الاشارة والائتلاف « وحسن البيان »(١) ٠

وفى باب « الايضاح » يسوق من الشواهد قوله تعالى : « وان يقاتلوكم يولوكم الادبار ثم لا ينصرون » ثم يستخرج منه على قلة ألفاظه ستة عشر ضربا من البديع ، بل يستخرج لنا من حرف واحد من النص الكريم هو « ثم » ثمانية أضرب من البديع ، ثم يوضحها أتم توضيح فيقول :

« فتضمنت هذه اللفظات السبع ستة عشر ضربا من البديع ، وهى التعليق ، والمطابقة المعنوية والاحتراس ، والتكميل ، والتنكيت ، والمقارنة ، والايضاح ، والادماج ، والترشيح ، والايغال ، والايجاز ، والافتنان ، وحسن النسق ، والتهذيب ، وحسن البيان ، والمثل السائر ٠ وأعجب ما وقع فيها أن حرفا واحدا منها وقع فيه على انفراده من ذلك ثمانية أضرب ، والحرف لفظة « ثم » وقع فيها الاحتراس ، والتنكيت ، والمقارنة ، والايضاح ، والادماج ، والتكميل ، وحسن النسق ، والترشيح ، توجد هذه الضروب بوجودها وتنعدم بعدمها ، وبيان ذلك انا لو قدرنا موضعها الواو سقط ذلك كله ، ثم أخذ فى تفصيل الالوان البديعية التى اشتملت عليها الآية فقال : « فأما تفصيل ما جاء من المحاسن فى جملة الآية « فالايضاح » منها فى عطف آخر الكلام على أوله ، بـ « ثم » لتحصل الفائدة التى شرحناها ، ولأجلها أتى بالآية ، وهى تبشير المؤمنين بأن عدوهم مخذول أبدا و « الادماج » وهو ادماج التكميل فى الايضاح ، فان لفظ الايضاح ظاهر والتكميل مدمج فيه ، لا يظهر الا بعد التفسير ، وكذلك الاحتراس ، فان الكلام الآخر لو عطف على الاول بالواو لظن من لا يحب أن يتسرع الى الموت ، انما وعدوا بالنصر فى تلك الحالة لا غير ، ويحتمل أن ينصر العدو بعد هذه ، لان الحرب أكثر ما يقع سجالا ، فيكون ذلك موجبا لقعوده عن القتال ، بعدها فأتى بالجملة الثانية معطوفة بـ «ثم» ليحترس بها من ذلك ٠ و « التنكيت » وهو النكتة التى رجحت العطف بـ « ثم » دون بقية حروف العطف ، لما يقتضى من المهلة الملائمة ، لما يدل عليه الفعل المضارع من الاستقبال لتكميل المعنى المراد ، وأما التعليق ،

(١) بديع القرآن ص ٦٥ ـ ٧٦ تحقيق المرحوم الدكتور حنفى محمد شرف ٠

وهو تعليق الوعيد بالوعد فانها تضمنت وعد المؤمنين بالنصر ، ووعيد الكافرين بالخذلان ، وأما المطابقة المعنوية فلجمع الكلام بين الوعد والوعيد بغير لفظهما، وأما المقارنة فلاقتران الاقتنان الذى دل عليه الوعد والوعيد ، والمدح والهجاء بالمطابقة ، وأما الايغال فلان معنى الكلام تم عند قوله : « يولوكم الادبار » ولما احتاج الكلام الى فاصلة توافى بقية فواصل الآى أفادها معنى زائدا يكمل معنى الكلام التام ، وأما الترشيح فهو ترشيح « ثم » لمجيء الفعل الثانى الذى عطف بها على الاول دال على الاستقبال ، وأما الايجاز فلدلالة هذه الالفاظ السبع على ما دلت عليه من معانى النفس ، ومعانى البديع ، وأما الافتنان فاشارة الوعد والوعيد الى أن من سبق لهم الوعد أهل للمدح ، ومن سبق لهم الوعيد أهل للذم ، وأما حسن النسق ، ففى اختيار العطف بـ « ثم » دون حروف النسق وأما التهذيب ففى تقديم ما يجب تقديمه من الوعد فى حال المقابلة ، وتأخير ما يجب تأخيره من الوعد والوعيد بعد ذلك فى الاستقبال ، وملاءمة العطف بـ « ثم » للمعطوف حيث كان صيغته صيغة المضارع الدال على الاستقبال ، وأما حسن البيان فلابانتها عن بشارة المؤمنين بما يثبت قلوبهم ، ويثلج صدورهم ، ويحرضهم على قتل المشركين » أبدا بأرشق عبارة دلت على المعنى المراد ، وأوصلته الى الافهام بأقرب الطرق ، وأسهلها ، وأما المثل السائر فلخروج الكلام فيها مخرج مثل يليق بكل واقعة تشبه واقعتها(١) .

وفى باب « جمع المختلفة والمؤتلفة » يورد شواهد من القرآن ، ومن الشعر ثم يوازن بين النظم البديعى القرآنى ، والنظم البديعى الشعرى ، ثم يفضل نظم القرآن لجودة بديعة ، وكثرته ، ومن ذلك موازنته بين قول الخنساء فى أخيها صخر ، وقد أرادت مساواته فى الفضل بأبيها مع مراعاة حق الوالد بزيادة فضل لا ينقص بها مدح الولد فقالت :

جارى أباه فأقبلا وهما ... يتعاوران ملاءة الحضر
وهما وقد برزا كأنهما ... صقران قد حطا الى وكر
حتى اذا نزت القلوب وقد ... لزت هناك العذر بالعذر(٢)
وعلا هتاف الناس أيهما ... قال المجيب هناك لا أدرى
برقت صحيفة وجه والده ... ومضى على غلوائه يجرى
أولى فأولى أن يساويه ... لولا جلال السن والكبر

وقوله سبحانه وتعالى : **« وداود وسليمان اذ يحكمان فى الحرث اذ نفشت فيه غنم القوم ، وكنا لحكمهم شاهدين ، ففهمناها سليمان ، وكلا آتينا حكما ،**

---

(١) بديع القرآن ص ٢٦١ – ٢٦٥ تحقيق المرحوم الدكتور حنفى شرف .
(٢) العذر : جمع عذار وهو السير الذى يكون على خد الدابة من اللجام .

وعلما »(١) وملخص الموازنة أن قول الخنساء والنص الكريم اشتركا فى أن كليهما فيه مساواة للولد بالوالد فى الفضل ، ثم ترجيح اولد ثم الرجوع الى المساواة بينهما مراعاة لحق الوالد ، الا أن النص الكريم فاق قول الخنساء وبيان ذلك كما أشار اليه ابن أبى الاصبع نفسه أن لخنساء قد سوت بين أخيها وأبيها بقولها :

وهمـا وقـد برزا كأنهمـا ... صقران قـد حطا الى وكـر
حتى اذا نزلت القـلوب وقـد ... لزت هنـاك العـذر بالعـذر

وهى تريد بذلك أن عذر اللحم لز بعضها بعضا ، وهذا يدل على المساواة فى العدو ثم قالت فى ترجيح الوالد : « برقت صحيفة وجه والده » تعنى أنه خرج وجهه من الغبار دون وجه رسيلة سبقا ، ثم قالت فى الحاق الولد بالوالد فى الفضل :

أولى فأولى أن يسـاويه ... لولا جـلال السن والكبر

تريد أن الولد كان قادرا على مساواة الوالد ، وما أولاه بذلك لولا ما التزمه من الأدب مع بر أبيه ومعرفته بحقه فغض من عنانه ، وخفض جناح فضـله ليؤثر أباه بالفضل على نفسه وأما الآية الكريمة ، فقد ساوت بين داود وسليمان فى التأهل للحكم ، وشركت بينهما فيه حيث قالت : « اذ يحكمان فى الحرث » ثم فضلت سليمان فقالت : « ففهمناها سليمان » ثم رجعت الى المسـاواة بعد الترجيح فقالت : « وكلا آتينا حكما » مراعاة لحق الوالد فقام حق الأبوة مقام الفضيلة التى اختص بها سليمان فحصلت المساواة ، الا أن الآية الكريمة فاقت قول الخنساء : لا شتمالها على ضرب من المحاسن البديعية خلا منهـا قول الخنساء ، ومن هذه المحاسن « الالتفاف » فى قوله تعالى : « وكنا لحكمهم شاهدين » و « التنكيت » فان النكتة التى من أجلها جمع الضمير الذى كان من حقه أن يكون مثنى هى الاشارة الى أن هذا الحكم متبع يجب الاقتـداء به لانه عين الحق ، ونفس العدل ، وكيف لا يكون ذلك ، وقد أخبر سـبحانه أنه له شاهد أى هو مراعى بعينه عز وجل و « الادماج » لان التنكيت قـد أدمج فى الالتفات(٢) وأنا أزيد على ابن أبى الاصبع فى المفاضلة جـزالة الالفاظ القرآنية ، وعذوبتها ، وحسن سبكها ، وسهولتها ، وحلاوة جرسها ، ونغمة موسيقاها ،وايمائها بمعانيها ٠

---

(١) الانبياء : ٧٨ : ٧٩

(٢) بديع القرآن ص ١٣١ ـ ١٣٢ تحقيق المرحوم الدكتور حفنى شرف ، وتحرير التحبير ص ٣٤٧ ـ ٣٤٨ تحقيق المرحوم الدكتور حفنى شرف ٠

وفى باب « التذييل » يسوق من الشواهد قول المتنبى :

تمس الامانى صرعى دون مبلغــــة   فمــا يقــول لشيىء ليت ذلك لى

وقال ابن نباته السعدى :

لم يبق جــودك لى شيئا أؤمله   تركتنى أصحب الدنيــا بلا أمــل

ويوازن بينهما ، وبين قوله تعالى : **« وله كل شيىء »**(١) .

ووجه الموازنة أن كلا من الشاعرين قد بالغ فى مدح ممدوحه ، والنص الكريم فاقهما فى المبالغة لعمومه ، فيقول : « فان لفظه « كل » تستغرق جميع الاشياء التى يقع واحدها على البسيط ، والمركب ، والقديم ، والمحــــدث ، والخالق ، والمخلوق ، وان كان وقوعها ها هنا على كل موجود سوى الله تعالى ، وكل معدوم ممكن الوجود »(٢) .

وفى باب « صحة الاقسام » يوازن بين نظم القرآن ، وبين نظم محمود كلام العرب ، فيذكر قوله تعالى : **« الذين يؤمنون بالغيب ، ويقيمون الصلاة ، ومما رزقناهم ينفقون ، والذين يؤمنون بما أنزل اليك ، وما أنزل من قبلك ، وبالآخرة هم يوقنون »**(٣) .

ثم يبين ما اشتمل عليه القول الكريم من ضروب البديع ، ثم يوازن بينه ، وبين قول زهير :

وأعلم علم اليــوم والأمس قبــله   ولكننى عن علم ما فى غد عم(٤)

فيقول : « أما الآية الاولى فقد استوعبت جميع الاصناف المحمودة ، اذ وصف المؤمنون فيها بجميع العبادات ، لان العبادات كلها نوعان : بدنية ، ومالية ، والبدنية قسمان : عبادة الباطن ، وعبادة الظاهر ، والمالية أيضــا قسمان : ما يشترك فيه المـال والبدن ، كالحج ، والجهاد ، وما ينفرد به المــال كالزكاة ، وصدقة التطوع على اختلاف أصنافها فقوله تعــالى : « يؤمنــون بالغيب » اشارة الى عبادة الباطن ، لان الايمان التصديق ، وهو من أعمــال

---

(١) النحل : ٩
(٢) بديع القرآن ص ١٥٧ تحقيق المرحوم الدكتور حفنى شرف .
(٣) البقرة : ٣ ـ ٤
(٤) ديوانه ص ٢٩ طبع دار الكتب .

القلب ، وقوله سبحانه : « ويقيمون الصلاة » تصريح بعبادة الظاهر وقوله عز وجل : « ومما رزقناهم ينفقون » اشارة الى العبادة المالية ، فاستوعبت جميع الاقسام على الترتيب حيث قدم عبادة الباطن على عبادة الظاهر ، وعبادة البدن على عبادة المال مع وصفه سبحانه لهم بالنزاهة عن جميع أوصاف الكسب المذمومة من الخيانة والسرقة ، والربا ، والغصب ، وجميع أنواع الظلم ، اذ أضاف عز وجل رزقهم لنفسه ، ليشير الى أنه الحلال الطيب لانه لا يضاف الى الله سبحانه من الرزق الا الحلال ، وأن الحرام من كسب العبد ، وأن كسبه ذلك بقضاء الله وقدره على المذهب الصحيح ، لكنه لا تجوز اضافته الى الله سبحانه ، أدبا معه عز وجل وأما الآية الثانية فقد استوعبت أقسام الزمان فى قوله تعالى : « والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون » فان ايمان هؤلاء المؤمنين بما أنزل الى الرسول صلى الله عليه وسلم ايمان فى الحال ، وبما أنزل من قبله ايمان فى الماضى ، وايقانهم بالآخرة ايمان فى الاستقبال ، ثم زاد ايمانهم بالآخرة وصفا اذا أخبر أنه ايمان متيقن ليدل بذلك على قوة تصديقهم للنبى صلى الله عليه وسلم ، ووثوقهم بأن ما أخبر بوقوعه سيقع يقينا لا شك فيه ، ولا شبهة فحصل فى هذه الآية مع نهاية المدح صحة الاقسام فى اللفظ والمبالغة فى معنى المدح والايغال فى الفاصلة زاد بها المعنى زيادة ما حصلت الا بها »(١) .

ثم بعد أن أوضح ما اشتملت عليه الآية الكريمة من جواهر البديع ، ولآلئه وازن بينها ، وبين قول زهير :

فقال : « واذا نظرت بين معنى هذه الآية التى عدتها اثنتا عشرة لفظة ، وبين قول زهير ، وهو أجل بيت جاءت فيه صحة التقسيم وأبلغه ، علمت مقدار ما بين البلاغتين ، وذلك أن عدة البيت ثلاث عشرة لفظة ، وفيه من زيادة اللفظ التى لم يؤت بها الا لأجل الوزن والقافية لفظتان ، فان ملخص معنى عجز البيت كله أن يقول : « ولا أعلم ما فى الغد » فاضطره الوزن والقافية الى أن قال ما قال ، والحظ كم بين قافية البيت وفاصلة الآية وما تضمنته الآية من مدح المؤمنين فى الازمنة الثلاثة ، وما فى اجماع ذلك المدح من الاشارة الى الايمان بجميع كتب الله التى أنزلها ، وجميع رسله التى أرسلها ، وبما سيكون من أمر البعث وبما نطقت به الكتب من جميع ما فيه من الحساب والمساءلة ، والصراط ، والميزان ، والجنة ، والنار ، وجميع أصناف الثواب والعقاب ، وتفاصيل هذه الجملة التى لو عددت معانيها بألفاظها الموضوعة لها لملات الاكوان ، وكانت كما أخبر عنها الرحمن بقوله تعالى : **« ولو أن ما فى الارض من شجرة أقلام ، والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات**

---

(١) بديع القرآن ص ٧٠ تحقيق المرحوم الدكتور حفنى شرف .

الله »(١) وأين يقع البيت من الآية ، فان بينهما من البعد ما بين المتكلم بهما »(٢) ٠

وفى باب « تجاهل العارف » يذكر من الشواهد القرآنية قوله تعالى : **« ما هذا بشرا ان هذا الا ملك كريم »**(٣) ٠ ثم بين أن التشبيه فى الآية الكريمة فاق تشبيه العرب ، والفضل فى ذلك يرجع الى النظم البديعى للاية الكريمة فيقول : « فجاء هذا اللفظ فى الآية متجاوزا تشبيه العرب كل من راعهم حسنة من البشر بالجن الى تشبيه يوسف صلوات الله وسلامه عليه حين كان حسنه رائعا ، وله مع الروعة نور وطلاقة ، وعليه سكينة ، تؤمن ناظره من تلك الروعة ، وتثبت قلبه ، لما يسرى اليه من سكينة ، فكان كذلك تشبيهه بالملك الكريم أصح وأوقع ، وأشد مطابقة من أكثر الجهلت »(٤) ٠

وفى باب « التنظير » نراه يوازن بين قول يزيد بن الحكم(١) الثقى من شعراء الحماسة :

يا بدر والأمثال يضـد	ربهـا لذى اللب الحـكيم
دم للخيـل بـوده	مـا خيـر ود لا يـدوم
واعـرف لجـارك حقـه	والحـق يعـرفه الـكريم
واعلم بأن الضـيف يـو	ما سـوف يحمـد أو يلوم

وبين قوله تعالى : **« وبذى القربى ، واليتامى ، والمساكين ، والجار ذى القربى ، والجار الجنب ، والصاحب بالجنب وابن السبيل ، وما ملكت أيمانكم »**(٦) ٠

وملخص الموازنة كما ذكر هو نفسه ، أن النص الكريم ، فاق النص الشعرى بنظمه البديعى ، ذلك أن الآية حصل فى نظمها ألوان من البديع خلا منها النص الشعرى منها : « صحة التقسيم » لاستيفائها جميع أقسام من تجب الوصية به ، والاحسان اليه ٠ « والايجاز » و « المساواة » لكون لفظها طبق معناه ٠ و « التهذيب » لما وقع فيها من حسن الترتيب ، اذ بدأ سبحانه بذى القربى ، وعطف عليهم اليتامى ، لما يجب من تقديمهم على المساكين ، وعطف الجار ذى القربى مقدما ذكره على المساكين ، وأفرده بالذكر بعد دخوله

---

(١) لقمان : ٢٧
(٢) بديع القرآن ص ٧١ تحقيق المرحوم الدكتور حفنى شرف ٠
(٣) يوسف : ٣١
(٤) بديع القرآن ص ٥١ تحقيق المرحوم الدكتور حفنى شرف ٠
(٥) الحماسة : شرح التبريزى ص ٢٢٩ طبع أوربا ٠
(٦) النساء : ٣٦

فى عموم المساكين لينبه على العناية به ، وعطف عليه الجار الجنب أى الصاحب، وقدمه على الصاحب المجاور فى السفر والحضر ، وعطف على ذلك ابن السبيل ، وختم الوصية بحسن الملكة »(١) ٠

وهذه الامثلة التى ذكرتها غيض من فيض مما يزخر به كتابه « بديع القرآن » من الحديث عن النظم القرآنى ، والغوص وراء الحلى البديعية التى اليها يرجع السر فى اعجاز القرآن الكريم وابن أبى الاصبع لا يحصر السر فى اعجاز القرآن فى نظمه البديعى بل هو يرى أنه بليغ بألفاظه وأسلوبه ، وتراكيبه ، وأثره فى النفوس ، ويزيد على ذلك كله أنه معجز كذلك بما فيه من التراكيب البديعية التى يعرفها العرب ، والمتكلمون بالعربية ، ويسمون صاحبها بالبليغ أو البديعى ، ولذلك فقد اهتم بهذه الانواع البديعية ، ومثل لها بايات من القرآن ، وخرج هذه الآيات على الوجوه البلاغية ، والانواع البديعية مبينا فى دراسته لهذه الانواع سلامة نظم القرآن ، وسلامة أسلوبه وبلاغة معانيه ، وفصاحة ألفاظه ، والحق أن هذا الصنيع قد انفرد به ابن الاصبع ، فلم يصنع أحد من العلماء قبله صنيعه فى تأليف كتاب تتميز فيه بلاغة القرآن ، وبديعه ، ليسهل من وراء ذلك استخراج اعجازه ، وتقريب طرق اطنابه ، وايجازه ٠

وابن أبى الاصبع لا يقصد بالبديع المحسنات البديعية التى اصطلح عليها المتأخرون من علماء البلاغة كالجناس والطباق والتورية ، وغيرها من المحسنات، وانما يقصد بالبديع جميع مباحث البلاغة الشاملة لعلومها الثلاثة عند المتأخرين، وهى المعانى ، والبيان ، والبديع ، فهو حين تناول البلاغة بالدرس والتحليل لم يتقيد بصنع السكاكى فى تقسيم البلاغة الى هذه العلوم الثلاثة ، بل درسها على أنها « بديع » فجدد لها شبابها ، وعاد بها الى عصرها الذهبى الذى كانت تدرس فيه دراسة أدبية فنية ذوقية بعيدة عن القضايا الكلامية ، والمسائل الفلسفية على يد عبد القاهر الجرجانى وغيره من الادباء والنقاد المتذوقين لحلاوة اللغة العربية ، والواقفين على أسرارها ، ودقائقها ، والعالمين بطرق التعبير فيها يستبين هذا من تعليقه على الآيات القرآنية التى أوردها فى كتابه « بديع القرآن » والتى ذكرنا طرفا منها فى الصفحات السابقة فى هذا البحث ٠ اذ نراه يذكر من الانواع البديعية ٠ المجاز ، والتشبيه ، والاستعارة ، وهى من مباحث « علم البيان » عند المتأخرين من علماء البلاغة ٠ ونراه يذكر من الحلى البديعية ٠ الايجاز ، والمساواة ، والتذييل ، والاحتراس ، والتكميل ، والايغال ٠ وهى من مباحث « علم المعانى » عند المتأخرين من علماء البلاغة ٠ ونراه يذكر من الالوان البديعية ٠ المطابقة والتقسيم ، والارداف ٠ وهى من مباحث « علم البديع » عند المتأخرين من علماء البلاغة ٠

---

(١) بديع القرآن ص ٢٣٩ تحقيق الدكتور حفنى شرف ٠

ودراسة ابن أبى الاصبع للنظم القرآنى شبيهة بدراسة عبد القاهر الجرجانى ، فكلاهما يعتمد فى دراسته على الذوق الفنى ، الا أن ابن أبى الاصبع قد توسع فى دراسته للنظم القرآنى ، واهتم به اهتماما عظيما ، حتى أفرد له كتابا خاصا سماه « بديع القرآن » والحق أنه قد أبدع فى هذا البديع وأحسن غاية الاحسان ، وفاق من سبقه ، وأتى بما لم يأت به غيره من السابقين ، وهذه ليست مجاملة منى لابن أبى الاصبع لانه مصرى مثلى ، وانما هى الحقيقة مجردة عن المجاملة والمبالغة • يدركها كل من حباه الله ذوقا رقيقا يتمكن به من معرفة جيد الكلام من رديئه ، وتمييز غثه من ثمينه •

ثم تحدث عن الاعجاز فى القرآن الكريم « عز الدين بن عبد السلام » المتوفى سنة ٦٦٠ هـ فى كتابه « الاشارة الى الايجاز فى بعض أنواع المجاز » •

وان من ينعم النظر فى كتابه هذا يرى أنه يرد السر فى اعجاز القرآن الى ايجازه ، ومجازه وجمال ألفاظه ، وسهولتها ، وبديع نظمه ، ومن أجل ذلك فاننا نراه يتحدث باسهاب عن الايجاز والمجاز فى القرآن الكريم ، معتمدا فى ذلك على ذوقه ، وعقله ، وثقافته الواسعة المترامية الاطراف كذلك نراه يوازن بين ألفاظ القرآن ، وبين غيرها مما هو موجود فى لغة العرب • ثم يفضل ألفاظ القرآن لجمالها ، وخفتها ، وما تضفيه على الاسلوب من الروعة ، والسحر ، وعلى المعنى من قوة التأثير وقد بدأ فى كتابه بالحديث عن الايجاز فذكر أنه « الاقتصار على ما يدل على الغرض مع حذف ، أو اضمار ثم أخذ فى الحديث عن الايجاز بالحذف فى القرآن الكريم ، وحصره فى تسعة عشر نوعا هى :

١ ـ حذف المضاف •

٢ ـ حذف المفعولات •

٣ ـ حذف الموصوفات •

٤ ـ حذف الاقوال •

٥ ـ حذف الشروط •

٦ ـ حذف أجوبة الشرط •

٧ ـ حذف جواب « لو » •

٨ ـ حذف جواب « لولا » •

٩ ـ حذف القسم •

١٠ ـ حذف أجوبة القسم •

١١ ـ حذف المبتدأ •

١٢ ـ حذف الخبر •

١٣ ـ حذف بعض حروف الجر ٠

١٤ ـ حذف الافعال العاملة ٠

١٥ ـ حذف المفاعيل التى يغلب حذفها ٠

١٦ ـ حذف ضمائر الموصولات ٠

١٧ ـ حذف فعل الامر ٠

١٨ ـ حذف الجملة ٠

١٩ ـ حذف الجمل ٠

وقد ساق لكل نوع من هذه الانواع الجم الكثير من الشواهد القرآنية ، وقام بشرحها وتحليلها ، ثم ذكر فائدة الحذف فقال : « وفائدة الحذف تقليل الكلام ، وتقريب معانيه الى الافهام »(٢) ٠

واليك أيها القارىء الكريم نماذج من الشواهد القرآنية التى ساقها وشرحها ، وحللها بأسلوبه الخاص الذى يجمع بين الروعة الادبية ، والدقة العلمية لكى تتعرف من خلالها على المجهود المشكور الذى بذله فى هذا المجال ، وعلى مدى فهمه لاسرار النظم القرآنى ، وما ينطوى عليه من الدقائق ، واللطائف التى لا يفطن اليها الا أصحاب الاذواق السليمة ، ولا يصل اليها الا ذووا المواهب الفنية ، ولا يستخرجها من كنوزها الا العالمون بطرق التعبير فى اللغة العربية فمن شواهد الايجاز بالحذف التى ساقها قوله تعالى : « حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم » أى حرمنا عليهم أكل طيبات أحل لهم أكلها ، أو تناولها ، ثم أشار الشيخ عز الدين بأن تقدير التناول أولى ليدخل فيه شرب ألبان الابل ، فانها من جملة ما حرم عليهم ٠ وهذه دقيقة تدل على عمق فهم الشيخ ، وسعة اطلاعه ، ومن الشواهد التى ساقها أيضا قوله تعالى: « وأنعام حرمت ظهورها » ويعلق عليه بقوله : « فيحتمل حرم ركوب ظهورها ، ويحتمل حرمت منافع ظهورها ، وهو أولى ، لأنهم حرموا ركوبها وتحميلها »(٢) وهذه دقيقة أخرى كسابقتها تدل على فضل الشيخ ، وكفاءته العلمية وموهبته الفنية ٠

وفى باب « حذف الاقوال » نراه يسوق من الشواهد قوله تعالى : « والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم » تقديره : يقولون سلام عليكم ٠ ثم أشار الشيخ فى هذا الباب الى لطيفة أدبية تدل على حسن تذوقه للغة القرآن الكريم وفهمه لروحه الادبية ٠ ملخصها ٠ أنه يقدر فى كل موضع

---

(١) الاشارة الى الايجاز فى بعض أنواع المجاز ص ٢

(٢) الاشارة الى الايجاز فى بعض أنواع المجاز ص ١٢ ٠

أحسن تقدير أى ينبغى أن يراعى فى تقدير المحذوف كونه مناسبا لما حذف منه حتى تتاخى الالفاظ ، ويأخذ بعضها بحجز بعض ، ويحصل الانسجام التام بينها ، وبين بعضها ، فيقدر فى قوله تعالى : « كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق » • وقيل لهم ذوقوا عذاب الحريق • ولا يقدر • ويقال لهم • لان « قيل » يناسب « أعيدوا » •

وكذلك يقدر فى قوله تعالى : « فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد ايمانكم » فيقال لهم • ولا يقدر • فقيل لهم • لتقدم • تبيض ، وتسود • ويقدر فى قوله تعالى : « يوم يسحبون فى النار على وجوههم ذو قوامس سقر » • ويقال لهم ذو قوامس سقر لمناسبة « يسحبون »(١) •

وفى باب « حذف القسم » يذكر من الشواهد قوله تعالى : « لقد أنزلنا اليكم كتابا فيه ذكركم » تقديره والله لقد أنزلنا اليكم كتابا فيه ذكركم • وقوله : « والذين آمنوا ، وعملوا الصالحات لندخلنهم فى الصالحين » تقديره والله لندخلهم فى الصالحين • ثم أشار المؤلف رحمه فى هذا الباب الى لطيفة أدبية تدل على حسن تذوقه لاساليب القرآن الكريم • ملخصها أن ما يحذف من القسم يختلف باختلاف عادة المقسمين فيقدر فى قول فرعون : « لاقطعن أيديكم » فبعزتى لاقطعن أيديكم • لانه كان لا يقر بالله فيقسم به ، والذى عهد فى عصره قول السحرة : « بعزة فرعون انا لنحن الغالبون »(٢) •

وفى باب « حذف المضاف » يسوق من الشواهد قوله تعالى : « فما أوجفتم عليه » ثم يعلق عليه فيقول : « فما أوجفتم على أخذه ، أو على حيازته ، أو على اغتنامه ، أو على تحصيله » ثم يشير رحمه الله الى لطيفة أدبية تدل على رقة ذوقه ، ولطافة حسه ، وصفاء ذهنه • ملخصها أنه اذا احتمل تقدير المحذوف أكثر من لفظ فينبغى أن يقدر من هذه المحذوفات أخفها وأحسنها ، وأفصحها ، وأشدها موافقة للغرض ، فتقدير « أخذه » فى الآية أحسن من تقدير « اغتنامه » لأنه أخصر ، ومن تقدير « حيازته » لثقل التأنيث الذى فى حيازته ، وكذلك جميع حذوف القرآن من المفاعيل والموصوفات ، وغيرها لا يقدر الا أفصحها ، وأشدها موافقة للغرض ، لان العرب لا يقدرون الا ما لو لفظوا به لكان أحسن ، وأنسب لذلك الكلام كما يفعلون ذلك فى الملفوظ به مثال ذلك قوله تعالى : « جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس » قدر أبو على • جعل الله نصب الكعبة ، وقدر بعضهم • جعل الله حرمة الكعبة • وهو أولى

---

(١) المصدر نفسه ص ١٣

(٢) المصدر نفسه ص ١٤

من تقدير أبى على ، لان تقدير الحرمة فى الهدى ، والقلائد ، والشهر الحرام لا شك فى فصاحته ، وتقدير النصب فيها بعيد من الفصاحة »(١) .

ثم أشار كذلك الى أن المحذوف اذا احتمل أكثر من لفظ ، فينبغى أن يقدر من الالفاظ أخصرها لان اختصار المحذوفات أحسن من اطالتها ، ولا يقـــدر ما فيه طول الا عند الاضطرار الى الاطالة كقوله تعالى : « ان الله مبتليكم بنهر » تقديره . ان الله مبتليكم بشرب ماء نهر . وكقوله تعالى : « فقبضت قبضة من أثر الرسول » تقديره . فقبضت قبضة من أثر حافر الرسول »(٢).

وفى الباب نفسه يسوق من الشواهد قوله تعالى : ((آمنوا بالله)) ثم يعلق عليه بقوله : « تقديره : آمنوا بوحدانية الله . ولا يقدر . آمنوا بوجود الله . لان الذين خوطبوا بهذا كانوا مؤمنين بوجوده وأنه خلق السموات ، والارض ، وسخر الشمس ، والقمر ، وأنزل من السماء المطر ، فيقدر فى كل مكان ما يليق به ، فان كان الخطاب مع المشركين قدرت . فامنوا بوحدانية الله ورسوله . لان الكلام مع قوم جحدوا الوحدانية ، وان كان الكلام مع اليهود كان التقدير . ولو آمن أهل الكتاب بدين الله ، وان كان مع النصارى جاز أن يقدر . آمنوا بدين الله ، وآمنوا بوحدانية الله . وكذلك فى الكفر ، يقـدر فى كل مكان ما يليق به فيقدر فى قوله تعالى : « كيف تكفرون بالله » كيف تكفرون بقدرة الله على بعثكم ، وقد كنتم أمواتا فأحياكم . ويقدر فى قوله تعالى « ألا ان عادا كفروا ربهم » ألا أن عادا كفروا نعم ربهم »(٣) . وهذه احدى اللطائف الادبية التى لا يفطن اليها الا من أوتى حظا وافرا من الذوق الادبى ، والقريحة الصافية ، والحس المرهف .

ثم نراه فى هذا الباب أيضا يشير الى مسألة لا يفطن اليها الا من أشرقت أنوار الرحمن فى قلبه ، ومنحه الله ذوقا رقيقا صافيا يدرك ما احتجب خلف الاستار من الاسرار وملخص هذه المسألة : أن تقديز ما ظهر فى القــرآن أولى فى باب من كل تقدير(٤) .

وهذا جميل من الشيخ رحمه الله الا أننى كنت أريد منه أن يعبر بالوجوب بدلا من الأولوية فيقول : ان تقدير ما ظهر فى القــرآن واجب فى بابه . لان الاولوية تشعر فقط بالمفاضلة وأن ما ظهر فى القرآن يقدم فى التقدير على غيره من كلام البشر ، وأنا أرى أن كلام الله يعلو ، وما يعلى عليه ، وأنه

---

(١) الاشارة الى الايجاز فى بعض أنواع المجاز ص ٤

(٢) المصدر نفسه ص ٥

(٣) الاشارة الى الايجاز فى بعض أنواع المجاز ص ٨

(٤) المصدر نفسه ص ٩

يجب تقديمه ، والاقتصار عليه فى التقدير ، فهو الكلام المعجز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه ، وهو الذى وقف أساطين البيان حيارى أمام بلاغته وعجزوا عن الاتيان بأقصر سورة من مثله ، وأن ما عليه صفوة البشر من البلاغة غرفة من بحاره ، وقبس من ؤنواره • ثم ان المحذوف فى آية اذا ظهر فى آية أخرى أصبح من جملة نص الآية ، فيجب الاقتصار عليه فى التقدير ، لأن النص القرآنى لا يجوز فيه التغيير ، والتبديل ، ولا الرواية بالمعنى ، لان ألفاظ القرآن مقدسة « لا مبدل لكلمات الله » وبناء عليه فالمحذوف فى آية اذا ظهر فى آية أخرى ، وجب أن يقتصر عليه فى التقدير ، لا أن يقدم على غيره من كلام البشر ، وتكون له الاولوية فقط كما قرر الشيخ رحمه الله ثم ساق الشيخ أمثلة قرآنية لهذه المسألة ، ووضحها توضيحا تاما ، ومن هذه الأمثلة قوله تعالى :

« حتى تأتيهم البينة رسول من الله » ثم علق عليه بقوله : تقديره : رسول من عند الله • لانه قد ظهر فى قوله تعالى : « ولما جاءهم رسول من عند الله » وقوله تعالى : « ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا » ثم علق عليه بقوله : تقديره : رحمة من عندنا • لانه ظهر فى سورة الانبياء فى قوله تعالى : « رحمة من عندنا وذكرى للعابدين » وقوله تعالى : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين » وعلق عليه بقوله : قد جاءكم من عند الله نور وكتاب مبين • بدليل قوله : « ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم » وقوله تعالى : « ويخوفونك بالذين من دونه » ثم علق عليه بقوله : تقديره • ويخوفونك بالذين يدعون(١) من دونه • بدليل قوله تعالى : « والذين تدعون من دون الله لا يخلقون شيئا » وقوله تعالى : « فأنجيناه والذين معه برحمة منا » ثم علق عليه بقوله : تقديره : « والذين آمنوا معه » • بدليل قوله تعالى : « لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك »(٢) •

ثم بعد أن فرغ من الحديث عن الايجاز بالحذف قام برحلة فى رياض القرآن الكريم جمع فيها ألوانا شتى من المجاز فى القرآن ، وشرحها شرحا وافيا ، وساق لها الجم الكثير من الشواهد القرآنية ، ووضح القول فى مجازها• فتحدث عن المجاز فى وصف الفاعل ، والمفعول بالمصدر ، وعن المجاز فى الحروف، وعن المجاز فى الافعال ، وعن مجاز التضمين ، وعن مجاز اللزوم ، وعن مجاز التشبيه •

واليك أيها القارىء لاكريم نماذج من المجازات التى أوردها فى كتابه ، ففى باب « المجاز فى وصف الفاعل والمفعول بالمصدر » يورد من الشواهد قوله

---

(١) المحذوف فى الآية هو صلة الموصول ، وكذلك الآية التى بعدها •
(٢) الاشارة الى الايجاز فى بعض أنواع المجاز ص ٩ ، ١٠

تعالى : « يؤمنون بالغيب » ثم يعلق عليه بقوله : « أى بالغائب • فيكون من مجاز المبالغة فى الصفة ، أو بذى الغيب فيكون من مجاز الحذف • وقوله تعالى : « انه لقول فصل » ويعلق عليه بقوله : أى بقول فاصل بين الحق والباطل كقولك انه لرجل عدل أى عادل فيكون من مجاز المبالغة ، فى الصفة ، أو لقول ذو فصل • فيكون من مجاز الحذف ، وكونه من مجاز المبالغة أولى لان المقام يقضى المبالغة أى لقول هو عين الفصل(١) • ويفهم من كلامه فى هذا الباب أن المجاز فى وصف الفاعل والمفعول بالمصدر تارة يكون للمبالغة ، وتارة أخرى يكون من قبيل مجاز الحذف ، وأن ذلك يتوقف على ملاحظة المقام ، والمعنى المقصود ، فاذا كان المقام يقتضى المبالغة كالمدح والتأكيد فيكون من قبيل مجاز المبالغة فى الصفة ، والا كان من قبيل مجاز الحذف •

وفى « مجاز التضمين » نراه يعرف التضمين تعريفا أدبيا سهلا ميسورا محببا الى النفوس بعيدا عن المتعقيدات الفلسفية المنطقية فيقول : « هو أن تضمن اسما معنى اسم لافادة معنى الاسمين ، فتعدية تعديته فى بعض المواطن ، أو تضمن فعلا معنى فعل لافادة معنى الفعلين ، فتعديه تعديته فى بعض المواطن كذلك »(٢) وهذا التعريف يشعر بأن فائدة مجازا لتضمين هى الاختصار والايجاز لان الاسم المضمن يفيد معنى الاسمين ، والفعل المضمن يفيد معنى لافعلين كذلك •

ثم أورد له بعض الشواهد القرآنية وجعل منها قوله تعالى : « كتب عليكم القصاص » وعلق عليه بقوله : أى فرض عليكم • ضمن « كتب » معنى «فرض» لافادة كونه مكتوبا مفروضا ، والكتابة حادثة والفرض قديم » •

كذلك نراه يورد من الشواهد القرآنية فى هذا الباب قوله تعالى : « وأخبتوا الى ربهم » ثم يعلق عليه بقوله : ضمن « أخبتوا » معنى « أنابوا » لافادة الاخبات والانابة معا » •

كذلك نراه يورد من الشواهد القرآنية قوله تعالى : « يؤمنون بالغيب » ويعلق عليه بقوله : « أى يقرون بالغيب لافادة معنى التصديق بالقلب ، والاقرار بالسان »(٣) •

وهكذا يستمر فى سرد الشواهد القرآنية لهذا المجاز ، ويتبع هذا السرد بالتعليق والتحليل ، والايضاح والتبيين •

---

(١) المصدر نفسه ص ١٠
(٢) الاشارة الى الايجاز فى بعض أنواع المجاز ص ٥٤
(٣) الاشارة الى الايجاز فى بعض أنواع المجاز ص ٣٤٨

ونراه فى « مجاز التشبيه » يورد من الشواهد قوله تعالى : « اهدنا الصراط المستقيم » ثم يعلق عليه بقوله « شبه الاسلام بالطريق المستقيم لأدائه الى الجنان ، ورضى الرحمن ، وفى التعبير عن الدين بالصراط ترغيب فى اتباعه ، لان كونه صراطا مشعر بأدائه الى رضى الله ، وثوابه ، والدين لا يشعر بذلك »(١) • وهو فى تعليقه على الآية الكريمة يبين فضل المجاز على الحقيقة ، اذ أن فى التعبير بالصراط المستقيم عن الدين معنى جميلا ، لا يشعر به لفظ الحقيقة •

ومن الشواهد التى ذكرها فى هذا الباب قوله تعالى : «ويقبضون أيديهم» ثم علق بقوله : « شبه امتناعهم من كل خير بقبض اليد » وأنا أرى أن جعل الآية من قبيل الكناية عن « البخل » أولى من جعلها من قبيل مجـــاز التشبيه ومن الشواهد التى أورها أيضا قوله تعالى : « ومن بيننا وبينـك حجاب » ثم علق عليه بقوله : « شبهت موانع الانتفاع بما يقوله ، ويدعوهم اليه بالحجاب المـانع من الرؤية ، والسماع » •

ومن الشواهد التى أوردها فى هذا الباب قوله تعالى : « واذ قتلتم نفسا فادار أتم فيها » ثم علق عليه بقوله : « أى فتدافعتم فى قتلها تجوز بالتدافع عن الاختلاف ، لان المدعى عليه يدفع عن نفسه ما نسب اليه من القتل ، والمدعى يدفع القتل عن نفسه أيضا فشبه دفع المعانى بدفع الاجرام وأنا أرى أن الآية من قبيل المجاز المرسل فقد أطلق المسبب وهو « ادارأتم » بمعنى « تدافعتم » وأراد سببه وهو « الاختلاف » لان الاختلاف سبب فى « التدافع » وفيها الى جانب ذلك ايجاز بالحذف فى قوله : « فيها » أى فى قتلها •

ومن الشواهد التى أوردها فى هذا الباب قوله تعالى : « ولمـا يدخل الايمان فى قلوبكم » ثم علق عليه بقوله : الدخول الحقيقى انتقال جرم من خـارج الشيىء الى داخله ، ولا يتصور فى الايمان انتقال من خارج القلوب الى داخلها ، ولا خروج منها الى ظاهرها ، بل شبه حصوله فى القلوب بعد أن لم يكن فيها بجرم دخل الى حيز بعد أن لم يكن فيه ، وكذلك شبه خلو القلوب منها بخـلو الاحياز من أجرام كانت فيها ، ثم فارقتها » •

وان من ينعم النظر فى شواهده التى ساقها فى مجاز التشبيه يرى أن بعضها من قبيل الاستعارة ، وبعضها من قبيل التشبيه ، وبعضها من قبيـل الكناية ، وبعضها من قبيل المجاز المرسل ، ولعله يريد من مجاز التشبيه كل هذه الامور ، ولولا خوفى من الاطالة التى تبعدنى عن موضوع البحث لقمت بتحقيق المسألة •

---

(١) المصدر السابق ص ٦٤

كذلك ساق شواهد كثيرة لمجاز اللزوم ، والمجاز فى الحروف ، والافعال ، وعلق عليها ، ولكن هذه الشواهد قد نقلها من كتب التفسير ، وليس له فيها مجهود يذكر لذا رأيت من المستحسن ألا أذكرها .

ثم بعد أن رجع الشيخ من رحلته التى قام بها فى رياض القرآن الكريم باحثا ومنقبا عن أزهار المجاز ورياضه اتجه بحسه المرهف ، وذوقه الرقيق الى أسلوب القرآن الكريم ليكشف لنا عن جمال ألفاظه ، ودقة تراكيبه ، وعمق معانيه ، فقرر أن نظم القرآن لا يدانيه نظم ، وأن أسلوبه أسلوب فريد ، وأنه فوق طاقة البشر ، ثم ساق أمثلة برهن بها على جمال ألفاظ القرآن موازنا بينها ، وبين غيرها ، ولقد أبدع فى ذلك ، وأجاد ، وأحسن ، وأتى بما لم يأت به غيره ، وهذا ان دل على شيىء فانما يدل على رسوخ قدم هذا الشيخ الجليل فى فن النقد ، ودرايته التامة ، وخبرته الواسعة بأساليب لغة القرآن الكريم ، ثم ان مما يلفت النظر أن هذه الموازنات التى قام بها ، ودلل بها على بلوغ القرآن الدرجة القصوى فى جمال ألفاظه ، وحسن تراكيبه ، وجودة نظمه لم يتعرض لها أحد من السابقين من أئمة البيان العربى من مفسرين وبلغاء ، ومن هذه الامثلة قوله تعالى : « وجنى الجنتين دان » ثم يعلق على هذا القول الكريم بقوله : « لو قال مكانه ، « وثمر الجنتين قريب » لم يكن كقوله : « وجنى الجنين دان » من جهة المجناس بين الجنا والجنتين ، ومن جهة أن الثمر لا يشعر بمصيره الى حال يجنى فيها ، ومن جهة مؤاخاة الفواصل » ومن الامثلة التى ساقها أيضا قوله تعالى : « ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه » ثم يعلق عليه بقوله : « لو قال : « ولو أعيدوا الى الدنيا لعادوا لما نهوا عنه » لم يكن كقوله : « ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه » لوجهين : أحدهما أن « ردوا » موافق لقوله : « يا ليتنا نرد » الوجه الثانى لو قال : « ولو أعيدوا » لسمج من جهة أن اللفظ المتحد كالطعام المتحد ، واللفظ المختلف مع اتحاد المعنى كالطعام المختلف ألذ من ذوق الطعام المؤتلف »(١) وهذا التعليق يدل على اعتماد الشيخ فى دراسته لبلاغة القرآن على ذوقه وحسه ، اذ يتخيل الالفاظ المختلفة أطعمة مختلفة يتلذذ الانسان بذوقها ، ويتمتع بحلاوتها ، ويتخيل اللفظ المتحد طعاما متحدا يمله الانسان ويسأمه ، ومن أمثلته التى ساقها قوله تعالى : « وما كنت تتلو من قبله من كتاب » ولا تخطه بيمينك اذا لارتاب المبطلون » ثم يعلق عليه بقوله : قوله « تتلو » أحسن من قوله : « تقرأ » لثقل « تقرأ » بالهمزة ، وقوله : « لا ريب » أحسن من قوله : « لا شك فيه » لثقل الادغام فى الشك ، واجتماع المثلين ، ولهذا كثر ذكر الريب فى القرآن » ومن شواهده التى ساقها قوله « ولا تهنوا » ثم علق عليه بقوله : « ولا تهنوا » أحسن من قوله : « ولا تضعفوا » لخفة « تهنوا » وثقل « تضعفوا » ومن شواهده قوله تعالى : « وهن العظم منى » ثم علق عليه بقوله « هذا التركيب أفصح من

---

(١) الاشارة الى الايجاز فى بعض أنواع المجاز ص ٢٠٥.

« ضعف العظم من » لان الفتحة فى « وهن » أخف من الضمة فى « ضعف »
ومن شواهده قوله تعالى : « آثرك الله علينا » ثم علق عليه بقوله : « هذا التركيب أحسن من « فضلك الله علينا » لخفة « آثر » وثقل « فضل » ومن شواهده قوله تعالى : « هذا خلق الله » ثم علق عليه بقوله « خلق » أخف من « مخلوق » لان « الخلق » ثلاثة أحرف و « المخلوق » خمسة أحرف ·

ولقد كشف الشيخ رحمه الله بهذا التعليق عن لطيفة أدبية ، ودقيقة فنية، غابت عن أذهان كثير من علماء البلاغة ، فهم يرون أن التعبير بالمصدر عن اسم الفاعل ، والمفعول يفيد المبالغة ، وغفلوا عما كشفه الشيخ وهو الخفة التى فى المصدر لقلة حروفه ، ولقد صرح بهذا فقال : « ومن ذلك التجوز بالمصدر عن المفعول لان التلفظ بالمصدر أخف من التلفظ بالمفعول ، والتجوز بالمصدر عن المفعول لان التلفظ بالمصدر أخف من التلفظ بالمفعول ، والتجوز بالمصدر عن اسم الفاعل أخف من ذكر الفاعل كقولك مررت برجل عدل فانه أخف من عادل ، ومن هنا كان قوله تعالى : « يؤمنون بالغيب » أخف من يؤمنون بالغائب(١)·

هذا هو رأى عز الدين بن عبد السلام فى اعجاز القرآن ، وملخصه كما ذكرت آنفا أنه يرى أن القرآن معجز بايجاز ، ومجازه ، وجمال ألفاظه ، وحسن تراكيبه ، وعمق معانيه ، وبديع نظمه ، وقد عرضه بأسلوب جميل ، جمع فيه بين الروعة الادبية ، والدقة العلمية ، فطاف حول رياض القرآن مستنشقا عبيرها الذى عطر الاكوان ، وغاص فى بحار الفرقان مستخرجا لآلئه ، وجواهره الحسان · عارضا اياها أمام أعين الانام ، كى يتذوقوا جمالها الفتان ، ويعرفوا كيف كان القرآن معجزا لاساطين البيان ؟ وليس هذا بكثير على عز الدين ابن عبد السلام ، فهو الزاهد التقى الورع ، الذى جاهد نفسه ، ودخل معها فى صراع مرير ، طويل ، حتى كبح جماحها ، وسيطر عليها ، فصفت روحه وأشرقت أنوار الرحمن فى قلبه ، وأضاءت الحكمة جوانب عقله ، وخطبت عرائس البيان وده ، فنطق لسانه بالسحر الحلال ، وجاد فكره بنفائس المعانى، وجواهر البيان ، الا أننى آخذ عليه أنه أفرط فى المجاز ، وجعله من وجوه الاعجاز ، مع أنه ليس محل اتفاق بين العلماء ، فمنهم من أنكر وجوده فى القرآن ، ومنهم من أجازه ، وحتى من أجازه منهم لم يجزه على اطلاقه ، وما دام المجاز فى القرآن ليس محل اتفاق بين علماء البيان ، فلا يصح جعله من وجوه الاعجاز ·

وهو متأثر فى دراسته للمجاز فى القرآن بالشريف الرضى · ومتأثر فى دراسته للايجاز بالرمانى والفرق بينما أن دراسة الرمانى للايجاز فى القرآن الكريم كانت دراسة فنية تعتمد على الذوق والاحساس ، أما دراسة العز بن

---

(١) الاشارة الى الايجاز فى بعض أنواع المجاز ص ٢٠٥

عبد السلام فكانت أقرب الى الدراسة العلمية التى تعتمد على العقل وتميل الى الضبط • ومتأثر فى دراسته لاسلوب القرآن ، والموازنة بينه ، وبين غيره بالشيخ عبد القاهر الجرجانى فكلاهما اعتمد فى هذه الدراسة على ذوقه ، وحسه الا أن عبد القاهر توسع فى هذه الدراسة أكثر من العز بن عبد السلام •

وبعز الدين بن عبد السلام نأتى الى خاتمة مشاهير العلماء الذين تكلموا عن الاعجاز فى القرآن الكريم ، وقد جاء من بعده علماء ، تكلموا فى هذه الناحية، لكن جهودهم ، قد اقتصرت على نقل وجمع آراء السابقين ، ولم يكن لهم جديد فى هذه الناحية يستحق الدراسة والتسجيل ومن هؤلاء « الزمكانى » المتوفى سنة ٧٢٧ هـ و « الزركشى » صاحب كتاب « البرهان فى علوم القرآن » والمتوفى سنة ٧٤٥ هـ ، و « ابن قيم الجوزية » صاحب كتاب « الفوائد » والمتوفى سنة ٧٥١ هـ و « السيوطى » صاحب كتاب «الاتقان فى علوم القرآن» والمتوفى سنة ٩١١ هـ •

أما فى عصرنا هذا فأحسب أن خير من كتب فى هذه الناحية المرحوم « مصطفى صادق الرافعى » صاحب كتاب « اعجاز القرآن » والمرحوم « سيد قطب » ومن خير آثاره فى هذا الموضوع « التصوير الفنى فى القرآن » و « مشاهد يوم القيامة فى القرآن » وتفسيره « فى ظلال القرآن » •

الفصـل الثـالث

((مظاهر الاعجاز فى نظم القـرآن))

ان للاعجاز فى النظم القرآنى مظاهر كثيرة سنتحدث عنها فى هذا الفصـل من هذا البحث ان شاء الله ولكن لابد أن نذكر قبل ذلك مقدمة نوضح فيها مصدر هذه المظاهر كلها وأساس الاعجاز القرآنى فى جملته اذ ان لهذه المظاهر التى سنتحدث عنها جذورا كامنة فى هذا المصدر ومن أجل هذا لا يمكن فهمهـا الا بالرجوع اليه .

بيان ذلك أن مرد البلاغة الكلامية الى الدقة فى مطابقة اللفظ للمعنى ، ومدى القدرة على تسخير الاول لتجلية الثانى وعرضه فى المظهر المطلوب .

ومن أهم أسباب ذلك أن يتسارع الى الذهن عامة ألفاظ اللغة ومترادفاتها بحيث يتكامل تصورها فى جانب من الذهن كما يتكامل تصور المعنى فى الجانب الآخر منه ، فبمقدار ما يتم من التطابق الدقيق بين المعنى القائم فى الذهن واللفظ الدال عليه والمصور له ، يوصف الكلام بالبلاغة والبيان . وتحقيق هذا الامر فى مظهره الكامل ، شيىء عسير بل محال لا يكاد يصل اليه الطوق البشرى وذلك لسببين :

أولهما : أن المعانى والتصورات أسرع الى الذهن دائما من الالفاظ وقوالب التعبير ، فالألفاظ مهما جاءت منمقة ، فانها تعجز فى عامة الاحوال عن اجتثـاث حقيقة احساسات النفس وما يختلج فيها .

واللغة مهما كان نوعها لا تغطى الا جزءا يسيرا من المشاعر والمعانى .

فالالم أنواع من الشعور والاحساس ، وليس له الا كلمة واحدة فى اللغة، وطعم الحلاوة أنواع فى الشعور والذوق ، وليس يعبر عنه الا بكلمة واحـدة هى الحلاوة . وكذلك الالوان والروائح وغيرها ، لا تملك اللغة الا التعبير عن سطحها القريب . فاذا ما أردت أن تدقق ، تخلفت اللغة عنك ، وبقيت مـع مشاعرك الصامتة .

ثانيا : مهما كان المتكلم أو الكاتب لغويا بليغا ، ومهما كان يحفظ فى ذهنه من متن اللغة وألفاظها ووجوه تركيبها ، فانه انما يقف من هذه اللغة أمام بحر عظيم من الكلمات والتعابير الحقيقية والمجازية المختلفة ، وهيهات أن تنتصب هذه المعايير كلها مكشوفة واضحة أمام خياله كما تنتصب مضارب الأحـرف

من الآلة الكاتبة أمام ضاربها وانما هو _ عند ارادة التعبير _ انما يلقى حبال تفكيره وذهنه الى هذا البحر العظيم ليلتقط منه ما تسارع اليه وسهل على لسانه أو اعتاد عليه قلمه وفكره ، وفي اللغة من المترادفات الكثيرة ما ينجده لغرضه ، ويقوم بعضه مقام بعض في التعبير العام عن مقصوده .

بيد أن هذه المترادفات انما تحسب مترادفات ، اذا ما أريد منها الدلالة الاجمالية على المعنى وهي ما يقتنع به العامة من المتكلمين ممن لا يطمعون بأكثر من ايصال خلاصة احساساتهم ومجمل أفكارهم الى الآخرين . أما عند سبر أغوار هذه الكلمات واستخراج ما بينها من الخصائص والفروق ، فهي ليست عندئذ من المترادف في شيء ، وانما لكل منها دلالته الخاصة واشارته المتميزة وايماؤه الذي لا يشترك فيه غيره ، وتصويره الذي ينفرد به عن نظائره ، وانما تتضح هذه الفروق ، وتتجلى للعيان عندما يريد الكاتب أو المتكلم أن ينهي الى السامع صورة لدقائق احساسه أو فكره وتأملاته . فتراه يمايز بين هذه المترادفات ويتأمل في جرس كل منها ووقعه ودلالته ، وقد يفسد الكلام كله في حسابه بتبديل كلمة منه بأخرى أو لدى أي تحوير في نسقه وسبكه من تقديم أو تأخير(١) .

واسمع ما يقوله الباقلاني في هذا الصدد :

« وهو _ أي أمر اختيار الكلمة _ أدق من السحر ، وأهول من البحر ، وأعجب من الشعر ، وكيف لا يكون كذلك ، وأنت تحسب أن وضع « الصبح » في موضع « الفجر » يحسن في كل كلام الا أن يكون شعراً أو سجعا ، وليس كذلك . فان احدى اللفظتين قد تنفر في موضع ، وتزل عن مكان لا تزل عنه اللفظة الأخرى ، بل تتمكن فيه وتضرب بجرانها ، وتراها في مظانها ، وتجدها فيه غير منازعة الى أوطانها ، وتجد الاخرى _ لو وضعت موضعها _ في محل نفار ، ومرمى شراد ، ونابية عن استقرار(٢) .

فمن هنا تضيق السبيل على من ينشد الدقة في التعبير والصدق في تصوير الاحساس والمعاني اذ تسقط فائدة المترادفات من حسابه لما يختص به كل منها من وظيفة ومكان ، فتجده يقع في احدى النقائص التي لا مخلص منها ، واما أن يجنح الى اختصار مفسد مخل ، واما أن يقع في كلامه على ألفاظ وتعابير تفسد عليه تصويره ، وتشوش على السامع مقصوده . واذا انسعت أمامه السبيل في معالجة بعض المعاني والتعبير عنها ، ضاقت عليه السبيل عن معان أخرى .

---

(١) من روائع القرآن للبوطي ص ١٣٧ _ ١٣٨.
(٢) اعجاز القرآن للباقلاني ص ١٨٤

وما كاتب من الكتاب أو بليغ من البلغاء فى القديم أو الحديث الا وفيه هذه النقائص أو فيه واحدة منها • وذلك كله ليس الا مظهرا للضعف البشرى الناتج عما يتمتع به من طاقة محدودة •

فمصدر الاعجاز القرآنى بمظاهره المختلفة لا يمت الى هذا الضعف البشرى بأى سبب •

اقرأ ما شئت من سوره وآياته ، فستجد أن كلا من جانبى اللفظ والمعنى فيه متوافقان متطابقان أتم ما يكون الوفاق والتطابق ، لا تشعر أن حرفا واحدا يفيض فى جانب اللفظ عن المعنى ، ولا تجد أى جانب فى المعنى – مهما دق ولطف – قد قصر عن الدلالة عليه اللفظ والتعبير •

وانك لتتأمل فتجد أن اللفظ فيه يدل على المعنى ، والمعنى بدوره يدل على اللفظ فكل منهما مرآة للاخر •

وتأمل ، لتفهم أيهما التابع وأيهما المتبوع ؟ هل اللفظ ظل للمعنى ، يحكيه ويجسده ويحده ، أو المعنى ظل للفظ يحييه ويحركه ويجمله ؟ فلا تفهم الا أنهما متمازجان يتعاوران الدلالة على أخص وأدق ما فى كل منهمـا من الملامح والسمات ، وكأنهما فى هذا الابداع الالهى العجيب متوالدان من بعضهما ، وكل منهما ميزان دقيق للاخر ، لا يتراءى بينهما أى أثر من آثار التفاوت والاختلاف•

فان كنت فى شك مما أقول ، وأردت أن تقف على الميزان والدليل ، فافتح كتاب الله ، وخذ منه أى آية من آياته ، ثم حاول مستعينا بكل ما لديك من كتب اللغة وقواميسها ، وبكل من تعرف من أرباب البلاغة وعلماء العربيـة والبيان أن تستبدل بأى كلمة فيها كلمة أخرى تدل على نفس المعنى ، فان استطعت أن تأتى بكلمة أدل على المعنى المطلوب ، وأتم فى اشراقها البيانى ، أو هى مثلها تقع موقعها لا ترتفع عليها ولا تنخفض عنها ، فاعلم حينئذ أن كل ما قد قاله العلماء عن اعجاز القرآن وبلاغته لغو من القول لا يستند الى جوهر من الحق • أما ان رأيت أن أى كلمة أخرى لا تفى بالمعنى والجـرس والتناسق اللفظى كما تفى به الكلمة القرآنية ، وأن أى تغيير أو تبديل فى الجملة القرآنية يزيل منها وجها رائعا ، ويضع لها وجها آخر قاتما أو ضعيفا أو متنافرا ، فاعلم أن ذلك هو الدليل الذى لا يمارى فيه على أن هذا الكتاب ليس مما يضعه البشر أو يطيقونه(١) • وخذ مثلا قول الله عز وجل وهـو يصف باهر قدرته وحكمته فى خلق الكون وتنظيمه :

---

(١) من روائع القرآن للبوطى ص ١٣٩ – ١٤٠

« فالق الاصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم »(١) ٠

وابحث عن أى كلمة أخرى تقوم مقامم « فالق » تؤدى معناها وتقوم مقامها فى تصوير المراد وتجسيم الفكرة ، وابحث عن أى كلمة أخرى تضعها موضع « الاصباح » فى دلالتها على الحركة والانبثاق ، وفى بث حقيقة المعنى المطلوب ، ثم فتش فى اللغة كلها عن كلمة تضعها فى مكان « سكنا » فيها هدوءها ، ولينها المنبعث من فتحاتها المتتابعة وفيها ما تبثه من الصورة فى الخيال والنفس ، ثم ابحث ما شئت عن كلمة أخصر وأدل وأجمع من هذه الكلمة العجيبة : « حسبانا » ٠

ابحث عن كل ذلك ، وقلب الآية على ما تختاره وتراه من الوجوه ، فستجد أن اللغة كلها أعجز من أن تأتى لها بألفاظ مثلها أو خير منها ، ومهما غيرت فى الآية أفسدت من بهائها ، ونقصت من روعتها واشراقها ٠ والقرآن كله مثال على ذلك ، فخذ ما شئت منه ، وقدر فيه ما قلت لك تجد أن كل كلمة منه انما تستقر فى مكانها لا يطولها أى تغيير أو تحوير ٠ هذا فى حين أنك لو تناولت أى قطعة بلاغية أخرى ، أيا كان صاحبها ، وعرضت ألفاظها وتركيبها للتبديل والتحسين فانك واجد الى ذلك سبيلا عريضة فكل قطعة بلاغية مهما تناهت فى الجودة قابلة للتبديل والتحسين ، خاضعة للبحث والنقد ٠ فهذا هو أساس الاعجاز القرآنى ، وهو المصدر الاول لمختلف مظاهر الاعجاز التى سنتحدث عنها ، واليه مرد كل ما يبحث فيه العلماء من خصائص أسلوبه وميزاته البلاغية(٢) ٠

واليك الآن بيان هذه المظاهر ٠

---

(١) الانعام : ٩٦
(٢) من روائع القرآن للبوطى ص ١٤٠ - ١٤١ ، واعجاز القرآن للرافعى ص ٢٨٣ وما بعدها ٠

المظهـر الاول

((الخصائص المتعلقة بأسلوبه))

ظهر لنا فى الفصل السابق الذى تحدثنا فيه عن « الذين كتبوا فى الاعجاز » أن راء هؤلاء العلماء الأجلاء تدور حول فكرة واحدة هى أن القـرآن الكريم معجز بأسلوبه الفريد ، ونظمه البديع الذى هو فوق طاقة البشر ، اذن فهذا الاسلوب هو « مادة الاعجاز » واذا كان كذلك ، فلابد للباحث فى هذا المجال من نظرة فى أسلوب القرآن الكريم يتعرف بها على خصائص هذا الاسلوب ، ومميزاته ، واليك هذه الخصائص :

الخاصة الاولى : أن هذا الاسلوب يجرى عن نسق بديع خارج عن المعروف من نظام جميع كلام العرب ، ويقوم فى طريقته التعبيرية على أساس مباين للمألوف من طرائقهم · بيان ذلك أن جميع الفنون التعبيرية عند العرب لا تعدو أن تكون نظما أو نثرا ، وللنظم أعاريض ، وأوزان محددة معروفة ، وللنثر طرائق من السجع ، والارسال وغيرهما مبينة ومعروفة · والقرآن ليس على أعاريض الشعر فى رجزه ولا فى قصيده ، وليس على سنن النثر المعروف فى ارساله ولا فى تسجيعه ، اذ هو لا يلتزم الموازين المعهودة فى هذا ولا ذاك ، ولكنك مع ذلك تقرأ بضع آيات منه فتشعر بتوقيع موزون ينبعث من تتـابع آياته ، بل يسرى فى صياغته ، وتالف كلماته ،وتجد فى تركيب حـروفه تنسيقا عجيبا بين الرخو منها والشديد ، والمجهور ، والمهموس ، والمـدود ، والمقطوع ، بحيث يؤلف اجتماعها الى بعضها لحنا مطربا يفرض نفسه على صوت القارىء العربى كيفما قرأ ، طالما كانت قراءته صحيحة · ومهما طفت بنظرك فى جوانب كتاب الله تعالى ومختلف سوره وجدته مطبوعا على هذا النسق العجيب فمن أجل ذلك تحير العرب فى أمره ، اذ عرضوه على موازين الشعر فوجدوه غير خاضع لأحكامه ، وقارنوه بفنون النثر فوجدوه غير لاحق بالمعهود من طرائقه فكان أن انتهى الكافرون منهم الى أنه السحر ، واستيعن المنصفون منهم بأنه تنزيل من رب العالمين ·

واليك أيها القارىء الكريم بعض الأمثلة التى توضح هذه الحقيقـة ، وتجليها ، قال تعالى : ((**بسم الله الرحمن الرحيم · حم تنزيل من الرحمن الرحيم · كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون ، بشيرا ونذيرا فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون · وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا اليه ، وفى آذاننا وقر ، ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل اننا عاملون · قل انما أنا بشر مثلكم**

يوحى الى انمــا الهكم اله واحــد فاســتقيموا اليــه واســــتغفروه وويل للمشركين »(١) ٠

وهذه الآيات بتأليفها العجيب ، ونظمها البديع حينما سمعها عتبة بن أبى ربيعة وكان من أساطين البيان استولت على أحاسيسه ، ومشاعره ، وطارت بلبه ، ووقف أمامها فى ذهول ، وحيرة ، ثم عبر عن حيرته وذهوله بقــوله : « والله لقد سمعت من محمد قولا ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشـــعر ولا بالسحر ولا بالكهانة ٠٠ والله ليكوننن لقــوله الذى سمعت(١) نبــأ عظيم » ٠

واليك سورة من سوره القصار تتجلى فيها هذه الحقيقة أمام العيــان ، من ينكرها فكأنما ينكر الشمس فى وضح النهار ٠

بسم الله الرحمن الرحيم : « والشمس وضحاها ٠ والقمر اذا تلاها ٠ والنهار اذا جلاها ٠ والليل اذا يغشاها ٠ والسماء وما بنــــاها ٠ والارض وما طحاها ٠ ونفس وما سواها ٠ فألهمها فجورها وتقواها ٠ قــد أفلح من زكاها ٠ وقد خاب من دساها ٠ كذبت ثمود بطغواها ٠ اذا انبعث أشقاها ٠ فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها ٠ فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها ٠ ولا يخاف عقباها »(٢) ٠

تأمل هذه الآيات ، وكلماتها ، وكيف صيغت هذه الصياغة العجيبــة ؟ وكيف تالفت كلماتها وتعانقت جملها ؟ وتأمل هذا النغم الموسيقى العـذب الذى ينبع من هذا التالف البديع ، انه اذا لامس أوتار القــلوب : اهتزت له العواطف ، وتحركت له المشاعر ، وأسال الدموع من العيون ، وخرت لعظمته جباه أساطين البيان ٠ أشهد بالله انه النظم الالهى الذى لا يقدر على مثـله مخلوق ٠

وهذه الحقيقة توجد فى سائر كتاب الله لا تتخلف فى سورة من ســوره ولا فى آية من آياته ، ومن أجل ذلك عجز أساطين البيان عن الاتيان بأقصر من مثله ٠

---

(١) سورة فصلت : ١ ــ ٥

(١) ارجع الى القصة تجدها مفصلة فى الفصل الاول من هذا البحث « الاعجاز ــ نشأته ــ تطوره ــ وجوهه » ٠

(٢) سورة الشمس ٠

وفى هذا يقول الرافعى رحمه الله : « وذلك أمر متحقق بعد فى القـرآن الكريم : يقرأ الانسان طائفة من آياته ، فلا يلبث أن يعرف لها صفة من الحس ترافد ما بعدها وتمده ، فلا تزال هذه الصفة فى لسانه ، ولو استوعب القرآن كله ، حتى لا يرى آية قد أدخلت الضيم على أختها ، أو نكرت منها ، أو أبرزتها عن ظل هى فيه ، أو دفعتها عن ماء هى اليه : ولا يرى ذلك كله الا سواء وغاية فى الروح والنظم والصفة الحسية ، لا يغتمض فى هذا الا كاذب على دخلة ونية ، ولا يهجن منه الا أحمق على جهل وغرارة ، ولا يمترى فيه الا عامى، أو أعجمى ،وكذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون »(١) .

الخاصة الثانية : هى أن التعبير القرآنى يظل جاريا على نسق واحـد من السمو فى جمال اللفظ ، وعمق المعنى ودقة التركيب ورقة الصياغة وروعة التعبير ، رغم تنقله بين موضوعات مختلفة من التشريع والقصص والمواعظ والحجاج والوعد والوعيد ، وتلك حقيقة شاقة ، بل لقد ظلت مستحيلة على الزمن لدى فحول علماء العربية والبيان .

وبيان ذك أن المعنى الذى يراد عرضه ، كلما كان أكثر عموما وأغنى أمثلة وخصائص كان التعبير عنه أيسر ، وكانت الالفاظ اليه أسرع ، وكلما ضـاق المعنى وتحدد ، ودق وتعمق كان التعبير عنه أشـق ، وكانت الالفـاظ من حوله أقل .

ولذا كان أكثر الميادين الفكرية التى يتسابق فيهـا أرباب الفصـاحة والبيان هى ميادين الفخر والحماسة والموعظة والمدح والهجاء ، وكانت أقل هذه الميادين اهتماما منهم ، وحركة بهم ميادين الفلسفة والتشريع ومختلف العلوم، وذلك هو السر فى أنك قلما تجد الشعر يقتحم شيئا من هذه الميـادين الخالية الأخـرى .

ومهما رأيت بليغا كامل البلاغة والبيان ، فانه لا يمكن أن يتصرف بين مختلف الموضوعات والمعانى على مستوى واحد من البيان الرفيع الذى يملكه ، بل يختلف كلامه حسب اختلاف الموضوعات التى يطرقها ، فربما جاء بالغـاية من البراعة فى معنى من المعانى ، فاذا انصرف الى غيره انخذل عن تلك الغاية ، ووقف دونها . غير أنك لا تجد هذا التفاوت فى كتاب الله تعالى ، فأنت تقرأ آيات منه فى الوصف ، ثم تنتقل الى آيات أخرى فى القصة ، وتقرأ بعـد ذلك مقطعا فى التشريع وأحكام الحلال والحرام ، فلا تجد الصياغة خلال ذلك الا فى

---

(١) اعجاز القرآن للرافعى ص ٢٧٤ _ ٢٧٥ ط . القاهرة سنة ١٩٦١ م.

أوج رفيع عجيب من الاشراق والبيان • وتنظر فتجد المعانى كلها لاحقة بهـا شامخة اليها • ودونك فاقرأ ما شئت من هذا الكتاب المبين متنقلا بين مختلف معانيه ، وموضوعاته لتتأكد من صدق ما أقول ، ولتلمس برهانه عن تجربة ونظـر(١) •

ويقول فى معرض حديثه عن « روح التركيب » فى أسلوب القرآن : لا ترى غير صورة واحدة من الكمال ، وان اختلفت أجزاؤها فى وجهات التركيب وموضع التأليف وألوان التصوير وأغراض الكلام »(٢) •

ويقل فى معرض حديثه عن « روح التركيب » فى أسلوب القرآن : « وهذه الروح لم تعرف قط فى كلام عربى غير القرآن ، وبها انفرد نظمـه ، وخرج مما يطيقه الناس ، ولولاها لم يكن بحيث هو ، كأنما وضع جملة واحدة ليس بين أجزائها تفاوت أو تباين ، اذ نراه ينظر فى التركيب الى نظم الكلمة، وتأليفها ، ثم الى تأليف هذا النظم ، فمن هنا تعلق بعضه على بعض ، وخرج فى معنى تلك الروح صفة واحدة هى صفعة اعجازه فى جملة التركيب ، وان كان فيما وراء ذلك متعدد الوجوه التى يتصرف فيها من أغراض الكلام ومناحى العبارات على جملة ما حصل به من جهات الخطاب : كالقصص والمواعظ والحكم والتعليم ، وضرب الأمثال الى نحوها مما يقدر عليه •

ولولا تلك الروح لخرج أجزاء متفاوتة على مقدار ما بين هذه المعـانى ، ومواقعها فى النفوس ، وعلى مقدار ما بين الالفاظ والأساليب التى تؤديها حقيقة ومجازا ، كما تعرفه من كلام البلغاء عند تباين الوجوه التى يتصرف فيها، على أنهم قد رفهوا عن أنفسهم وكفوها أكبر المؤنة فلا يألون أن يتوخوا بكلامهم الى أغراض ومعان يعذب فيها الكلام ويتسق القول وتحسن الصنعة مما يكون أكبر حسنة فى مادته اللغوية ، وذلك شائع مستفيض فى مأثور الكلام عنهم ، ثم هم مع هذا يستوفون المعنى الواحد على وجهه ، فاذا تحولوا الى غيره ، وأفضوا بالكلام الى سواه رأيت من اقتضابهم فى الأسلوب ومن التنـاكر فى وضع المعنى الى المعنى ما يشبه فى اثنين متقابلين من النـاس منظر قفـا الى وجه •

وعلى أننا لم نعرف بليغا من البلغاء تعاطى الكلام فى باب الشرع وتقرير النظر ، وتبيين الأحكام ونصب الادلة واقامة الاصول والاحتجاج لها والرد

---

(١) من روائع القرآن للبوطى ص ١١٢ ـ ١١٣

(٢) اعجاز القرآن ص ٢٧٤ وتاريخ آداب العرب للرافعى جـ ٢ ص ٢٤٢

على خلافها الا جاء بكلام نازل عن طبقة كلامه فى غير هذه الابواب ، وأنت قد تصيب له فى غيرها اللفظ الحر والاسلوب الرائع والصنعة المحكمة والبيان العجيب ، والمعرض الحسن فاذا صرت الى ضروب من تلك المعانى ، وقعت ثمة على شيىء كثير من اللفظ المستكره ، والمعنى المستغلق ، والسياق المضطرب ، والأسلوب المتهافت والعبارات المبتذلة ، وعلى النشاط متخاذلا ، والعرى محلولة ، والوثيقة واهنة ، وتبيت كلاما لا تطمئن اليه فى أكثر جهاته حتى لتعجب أن صاحبه وصاحب ذلك الكلام رجل واحد »(١) ٠

الخاصة الثالثة : أن معانيه مصوغة بحيث يصلح أن يخاطب بها الناس كلهم على اختلاف مداركهم وثقافاتهم وعلى تباعد أزمنتهم وبلدانهم ، ومع تطور علومهم واكتشافاتهم ٠

خذ آية من كتاب الله مما يتعلق بمعنى تتفاوت فى مدى فهمه العقول ، ثم اقرأها على مسامع خليط من الناس يتفاوتون فى المدارك ، والثقافة ، فستجد أن الآية تعطى كلا منهم من معناها بقدر ما يفهم ، وأن كلا منهم يستفيد منها معنى وراء الذى انتهى عنده علمه ٠

ولسنا نقصد أن الآية تحتمل بذلك وجهين متناقضين أو فهمين متعارضين ، بل هو معنى واحد على كل حال ، ولكن له سطحا وعمقا وجذورا يتضمنها جميعا أسلوب الآية ٠ فالعامى من الناس يفهم منه السطح القريب ، والمثقف منهم يفهم مدى معينا من عمقه أيضا ، والباحث يفهم منها جذور المعنى كله ٠

وخذ ان شئت آية أخرى من كتاب الله مما يتعلق بمعنى يتطور مع امتداد الزمن ، ثم ابحث عن معناها فى مختلف العصور ، فانك تجد الصدر الأول من المسلمين يفهمون منها المعنى المراد كما هو فى طورهم وعصرهم ، وتجد من بعدهم يفهمون معناها كما تطور فى زمانهم ، على أن كلا الفهمين من المدلولات العربية للاية ، وليس من قبيل التكلف أو تحميل اللفظ ما لا يحمل ، ولكن الفهم الثانى كان مطويا عن السابقين لعدم وجود ما ينبههم اليه اذ ذاك ٠

وفى القرآن الكثير من هذا وذاك فلنعرض أمثلة منه :

---

(١) اعجاز القرآن ص ٢٧٩ ـ ٢٨٠ وتاريخ آداب العرب للرافعى ج ٢ ص ٢٤٥ ـ ٢٤٦

من القبيل الأول قوله تعالى : ((**تبارك الذى جعل فى السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا**))(١) فهذه الآيةتصف كلا من الشمس والقمر بمعنيين لهما سطح قريب يفهمه الناس كلهم ، ولها عمق يصل اليه المتأملون والعلماء ، ولهـا جذور بعيدة يفهمها الباحثون والمتخصصون ، والآية تحمل بصياغتها هـذه الدرجات الثلاث للمعنى ، فتعطى كلا حسب طاقته وفهمه •

فالعامى من العرب يفهم منها أن كلا من الشمس والقمر يبعثان بالضياء الى الأرض ، وانما غاير فى التعبير عنه بالنسبة لكل منهما تنويعا للفظ • وهو معنى صحيح تدل عليه الآية ، والمتأمل من علماء العربية يدرك من وراء ذلك أن الآية تدل على أن الشمس تجمع الى النور الحرارة فلذلك سماها سراجا ، والقمر يبعث بضياء لا حرارة فيه ، وهو أيضا معنى صحيح تدل عليه الآية دلالة لغوية واضحة • أما الباحث المتخصص فى شئون الفلك فيفهم من الآية اثبات أن القمر جرم مظلم وانما يضىء بما ينعكس عليه من ضياء الشمس التى شبهها بالسراج بالنسبة له ، وهو أيضا معنى صحيح تدل عليه الآية بلغتهـا وصياغتها ، فأنت تقول : غرفة منيرة اذا انعكس عليها الضوء من سراج فى وسطها ، ولا تقول قبس منير ، اذ النور ينبعث من حقيقته وداخله ، بل تقول قبس مضىء •

فالآية تتضمن هذه الدلالات الثلاث جملة واحدة ، ولكنها ـ بأسلوبها العجيب ـ لا تخاطب الناس الا بما يدركونه منها كلا حسب استعداده وطاقة فكره ، وبذلك تكون الآية خطابا مفيدا لأضراب الناس كلهم •

ومن هذا القبيل أيضا قوله تعالى : ((**والأرض بعد ذلك دحاها أخرج منها ماءها ومرعاها**))(٢) يقرأ هذه الآية العربى الذى لا يعلم عن الارض وهيئتها الا الشكل الذى يراه منها ، وهو الامتداد والانبساط ، فيفهم من قوله «دحاها» معنى الانبساط والامتداد ، وهو فهم صحيح تدل عليه الكلمة بمعناها اللغوى القريب • ثم يقرأها عالم الفلك ، أو المثقف العادى فى هذا العصر ، فيفهم من قوله ((دحاها)) معنى الاستدارة والتكوير ، وهو أيضا فهم صحيح للكلمة ، اذ هى تحمل فى آن واحد كلا من معنى الاستدارة والانبساط ، وهـو أدق ما توصف به الأرض • ولقد استعملت هذه الكلمة بكلا معنيها فى هذه الأبيات لابن الرومى :

---

(١) الفرقان : ٦١
(٢) النـازعات : ٣٠ ، ٣١

ان أنس لم أنس خبـازا مررت به   يدحو الرقاقة وشك اللمح بالبصـر
ما بين رؤيتهـا فى كفـه كـرة   وبين رؤيتهـا قوراء كالقمـر
الا بمقـدار ما تنـداح دائـرة   فى صفحة الماء يلقى فيه بالحجر(١)

ومن القبيل الثانى قوله تعالى : **« والخيل والبغـال والحمير لتركبوها وزنية ويخلق ما لا تعلمون(٢) »** ٠

لقد كان يقرأ هذه الآية أسلافنا ، فلا يعنيهم من فهمها الا قوله : والخيل والبغال والحميز لتكبوها وزينة ٠ اذ كان ذلك القدر هو المنطبق على واقع حياتهم فيما تقصد اليه الآية من الحديث عن وسائل ركوب الانسان ، وما فى ذلك من نعمةالله عليه ٠ فاذا قرأوا الجملةالتىتليها وهى : **«ويخلق ما لاتعلمون»** تاهوا بين تاويل وتفسيرات مختلفة ٠ ويقرأها انسان هذا العصر فلا يشك مى أن المراد بها هذه الوسائل الحديثة الاخرى التى أضيفت الى الوسائل السابقة ٠ وهكذا نجد الآية خطابا لأهل العصور المتتالية كلها ، وليست خاصة بقوم دون قوم أو جيل دون جيل(٣) ٠

وهذه الخاصة تضيف الى اعجازه البلاغى المتمثل فى نظمه البديع ، وتركيبه العجيب اعجاز آخر يتمثل فى عمق معانيه وتطورها مع الزمن ، وسبقها للعقل الانسانى ، واستيعابها للنظريات العلمية والاختراعات الحديثة مما يدل على أنه ليس من وضع البشر ٠ وانما هو تنزيل من رب العالمين ٠

يقول الرافعى رحمه الله « فاذا ثبت للقرآن المجيد سبقه ما تتوهمه زمنا ، وتقدمه حدودا من آخر حدود العقل الانسانى ، على حين أنه أنزل فى حدود غيرها بعيدة ، ضعيفة لا علم فيها ، ولا آلات علم ، ـ فحسبك بذلك وحده برهانا على أن هذا الكتاب جملةمن الأزلتحولت فى معنىومنطق ، وجاءت لغرضوغاية، ولامست الناس لتكون فيهم سببا لرسوخ الايمان ، ثم نظاما للايمان نفسه ، ومتى رسخ الايمان ، فقد رسخ العلم كله فى النفس الانسانية ٠ وهذا عندنا من بعض السر فيما جاء فى الكتاب الكريم من آيات السموات والارض والنظر

---

(١) تشترك مادة داح ودحى فى الدلالة على الاتساع والعظم والانبساط والاستدارة ٠ قال فى شرح القاموس : وأنداح بطنه : عظم واسترسل كانداح واندحى ودحى ، وبطن منداح : خارج مدور ٠ وذكر فى اللسان نحو ذلك ويشبه أن تكون الكلمتان فى أصلهما من مادة واحدة ٠

(٢) النحل : ٨

(٣) من روائع القرآن للبوطى ص ١١٤ ـ ١١٦ .

والاستدلال ، ومن طرق التعبير ، النفسى بالامثال والقصص ونحوها(٤) » ٠
ويقول فى موضع آخر : « ثم ان فى ذكر الآيات الكونية والعلمية فى القرآن دليلا على اعجاز آخر فهو بذلك يومىء الى أن الزمن متجه فى سيره الى الجهة العلمية القائمة على البحث والدليل ٠

وأن الانسانية ذاهبة فى أرقى عصورها الى هذا المذهب ٠٠ فوجود ذلك فيه قبل أن يوجد ذلك فى الزمن بأربعة عشر قرنا شهادة ناطقة من الغيب لا يبقى عليها موضع شبهة(١) » ٠

ولولا أن هذه المعجزات العلمية بعيدة عن بحثى لذكرت الكثير منها ، ومن يريد الاطلاع عليها فعليه بكتاب : « الاسلام والطب الحديث » للدكتور عبد العزيز اسماعيل باشا ، وكتاب : « التبيان فى علوم القرآن » للصابونى ففى هذين الكتابين كثير من المعجزات العلمية فى القرآن الكريم ٠

الخاصة الرابعة : وهى ظاهرة التكرار ٠٠

وفى القرآن من هذه الظاهرة نوعان :

أحدهما : تكرار بعض الألفاظ أو الجمل ٠

وثانيهما : تكرار بعض المعانى كالأقاصيص ، والأخبار ٠

فالنوع الأول : يأتى على وجه التوكيد ، ثم ينطوى بعد ذلك على نكت بلاغية ، كالتهويل ، والانذار ، والتجسيم ، والتصوير ، وللتكرار أثر بالغ فى تحقيق هذه الاغراض البلاغية فى الكلام ، ومن أمثلته فى القرآن الكريم قوله تعالى : « الحاقة ما الحاقة ، وما أدراك ما الحاقة ، كذبت ثمود وعاد بالقارعة » وقوله تعالى : «سأصليه سقر ، وما أدراكما سقر ، لاتبقى ولا تذر » وقوله تعالى : « انه فكر ، وقدر ، فقتل كيف قدر ، ثم قتل كيف قدر » وقوله تعالى : « أولئك الذين كفروا بربهم ، وأولئك الاغلال فى أعناقهم ، وأولئك أصحاب النار » وقوله تعالى : « وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم ، وما أنت بمسمع من فى القبور » ولا يتسع هذا المقام لسرد ما فى القرآن من هذا التكرار فارجع اليه ان شئت فى مظانه وأماكنه(٢) ٠

---

(٤) تاريخ آداب العرب ص ١٣٠ جـ ٢
(١) تاريخ آداب العرب ص ١٣١ جـ ٢
(٢) انظر فى ذلك مشكل القرآن لابن قتيبة ، واعجاز القرآن للباقلانى ، والبرهان للزركشى ٠

والنوع الثانى : وهو تكرار بعض القصص والأخبار يأتي لتحقيق غرضين هامين :

الأول : انهاء حقائق الدين ومعانى الوعد والوعيد الى النفوس بالطريقة التى تألفها ، وهى تكرار هذه الحقائق فى صور وأشكال مختلفة من التعبير والأسلوب ، ولقد أشار القرآن الى هذا الغرض بقوله : ((**ولقد صرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا**(١))) ·

قال الزركشى : ((وحقيقته ـ أى حقيقة التصريف ـ اعادة اللفظ أو مرادفه لتقرير معنى خشية تناسى الأول لطول العهد به(٢))) ·

الثانى : اخراج المعنى الواحد فى قوالب مختلفة من الالفاظ والعبارة ، وبأساليب مختلفة تفصيلا واجمالا ، وتصريف ، الكلام فى ذلك حتى يتجلى اعجازه ، ويستبين قصور الطاقة البشرية عن تقليده أو اللحاق بشأوه ، اذ من المعلوم أن هذا الكتاب انما تنزل لاقناع العقلاء من الناس بأنه ليس كلام بشر ، ولا لزامهم بالشريعة التى فيه ، فلابد فيه من الوسائل التى تفى بتحقيق لاوسيلة الى كلا الأمرين ·

ومن هنا كان من المحال أن تعثر فى القرآن كله على معنى يتكرر فى أسلوب واحد من اللفظ ، ويدور ضمن قالب واحد من التعبير ، بل لابد أن تجده فى كل مرة يلبس ثوبا جديدا من الاسلوب ، وطريقة التصوير والعرض ، بل لابد أن تجد التركيز فى كل مرة منها على جانب معين من جوانب المعنى أو القصة ولنضرب لك مثالا على هذا الذى نقول : بقصه موسى عليه السلام اذ انها أشد القصص فى القرآن تكرارا ، فهى من هذه الوجهة تعطى فكرة كاملة على هذا التكرار ·

وردت هذه القصة فى حوالى ثلاثين موضعا ، ولكنها فى كل موضع تلبس أسلوبا جديدا وتخرج اخراجا جديدا يناسب السياق الذى وردت فيه ، وتهدف الى هدف خاص لم يذكر فى مكان آخر ، حتى لكأننا أمام قصة جديدة لم نسمع بها من قبل ·

---

(١) طه : ١١٣
(٢) البرهان جـ ٣ ص ١٠

واليك مثلا آخر : هو قصة نوح فقد وردت فى سورة هود(٢) ، ثم أعيد ذكرها فى سورة القمر(٣) اقرأ أنت نفسك القصة فى السورتين ، ثم تأمل فى كلا النصين ، وقارن بين أسلوب كل منهما ، وطريقته فى العرض والتصوير والجانب المعنوى الذى يرتكز عليه التعبير فى كل منهما ، فانك ان تأملت فى ذلك جيدا تخيلت أنك انما تقرأ فى المرة الثانية خبرا جديدا يشوقك أمره ، وتفجؤك أحداثه ، وشعرت أن النفس بحاجة الى أن يعرض عليها هذا الخبر من كلا الجانبين ، وبكلا الأسلوبين ٠

الخاصة الخامسة ، وهى تداخل أبحاثه ، ومواضيعه فى معظم الأحيان فان من يقرأ هذا الكتاب المبين لا يجد فيه ما يجده فى عامة المؤلفات والكتب الأخرى من التنسيق والتبويب حسب المواضيع ، وتصنيف البحوث مستقلة عن بعضها ، وانما يجد عامة مواضيعه وأبحاثه لاحقة ببعضها دونما فاصل بينها ، وقد يجدها متداخلة فى بعضها فى كثير من السور والآيات ٠

وهذه الخاصة قد خيلت لبعض محترفى الغزو الفكرى من المبشرين والمستشرقين وأذنابهم وذيولهم ممن يدورون فى فلكهم أن فى القرآن ثلمة يمكن الدخول منها الى اصطناع نقد أو محاولة تهديم ، أو بث تشكيك ، فأخذوا يتساءلون عن سبب هذا التداخل والتماذج فى معانى القرآن ، ثم راحوا يجيبون عن تساؤلهم هذا بأنها البدائية والبساطة فى منهج البحث ، وأن القرآن لا يعدو كونه مجموعة أفكار منتثرة أنتجها فكر انسان ٠

والحقيقة أن هذه الخاصة فى القرآن الكريم ، انما هى مظهر من مظاهر تفرده ، واستقلاله عن كل ما هو مألوف ومعروف من طرائق البحث والتأليف ، هذا شىء ، وهناك شىء آخر هو أن من الخطأ فى أصل النقد والبحث أن نحاكم القرآن فى منهجه وأسلوبه الى ما تواضع عليه الناس اليوم أو قبل هذا اليوم أو الى ما سيتواضعون عليه مع تطور الزمن – من طرائق البحث والتأليف وتنسيق المعانى فهذا الذى يتوافق عليه الكاتبون من تقسيم كتبهم الى أبواب وفصول ، ثم تضمين كل فصل منها لجملة معينة من الأبحاث والمعانى ، ليس مرده الى أمر الزامى ، أو مثل أعلى يفرض عليهم ذلك ، وانما الأمر فيه تابع للاغراض المتعلقة به ، وهو فى جملته عرف يعتادونه ، وطور

---

(٣) وهى فى جملتها اثنتان وعشرون آية محصورة ما بين قوله تعالى : « ولقد أرسلنا نوحا الى قومه انى لكم منه نذير مبين » وقوله تعالى : « تلك من أنباء الغيب نوحيها اليك ... الآية » ٠

(٣) من الآية ٩ الى الآية ١٥

يمرون عليه ، ويجتازونه بعد حين الى غيره ، فما هى الحقيقة الثابتة التى تلزم كتاب الله تعالى بأن يسير فى منهجه على طور من أطوار هؤلاء العباد ، وأن يتبع تنسيقهم الذى يضعون ، أو أن تتصنف أبحاثه ومعانيه حسب المنهج الذى يشاؤون ؟ هذا الى أن المناهج تتناسخ والاساليب تتطور كما هو معروف ، على أن هذه الخاصة تابعة لحكمة عليا يدور معها المعنى القرآنى كله . ذلك أن جملة ما فى القرآن من مختلف المواضيع والمعانى الجزئية ، انما يدور جميعه على معنى كلى واحد ، هو دعوة الناس الى أن يكونوا عبيدا لله بالفكر والاختيار كما خلقهم عبيدا له بالجبر والاضطرار ، وأن يدركوا أن أمامهم حياة ثانية بعد حياتهم هذه ، وأن يستيقنوا ضالة هذه الحياة بالنسبة لتلك فى كل من خيرها وشرها وسعادتها وشقائها . فالقرآن شأنه أن يبث هذا المعنى الكلى الخطير من خلال جميع ما يعرضه من الابحاث والمواضيع المختلفة من تشريع ووعد ووعيد ، وقصة وأمثلة ووصف ، وانما يتحقق ذلك بهذا النسق الذى جرى عليه من التداخل والتماذج فى المعانى .

فهو حينما يبدأ بعرض قصة لا يدعك ـ ولو فى مرحلة من مراحلها تنسى ـ ذلك المعنى الكلى الذى ذكرناه ، فهو يخللها بما ليس منها من تهديد أو وعد ووعيد أو نصيحة أو وعظ تحققا للغرض الذى من أجله تساق القصة ، وحفظا للفكر أن يتشتت مع أجوائها وأحداثها فينس مساقها الأصلى .

وهو حينما يشرح لك أحكاما فى العبادات أو المعاملات أو غيرها ، يسلك بك أيضا نفس المنهج فهو يحاذر أن تستغرق فى التأمل فى هذه الأحكام من حيث هى علم أو فن برأسه ، كما قد يحصل مع من ينكب على دراسة هذه الأحكام فى الكتب العلمية الخاصة بها ، فيوصلها بايات ليست منها ، فيها وعد أو وعيد أو حديث عن الآخرة أو دليل على وجود الله وعظمته ، ليتنبه الفكر ، ويظل مستيقظا للحقيقة الكلية الكبرى التى تطوف بها جميع المعانى والأبحاث .

ولو أن القرآن اتبع فى عرض معانيه ، هذا الذى يسلكه الناس فى تاليفهم وأبحاثهم ، فأفرد فصولا خاصة لعرض الاحكام والتشريع ، ثم ميز فصلا آخر للقصص ، وجاء بفصل ثالث فى وصف المغيبات كالجنة والنار وهكذا .. لو درج القرآن على ذلك لفات تحقيق الغرض الذى ذكرناه ولما أمكن أن تكون هذه الفصول المتناثرة انعكاسا لمعنى كلى واحد تشترك كلها فى بثه والتوجيه اليه ، ولئن أمكن أن يتذكر القارىء ذلك فى تمهيد أو فى فصل من الفصول فلسرعان ما ينساه عندما يستغرق فى قراءة أو دراسة الفصول الاخرى . وان هذا الذى نقول ، ليس من الحقائق المستعصية أو الخافية على من يصدق التأمل والنظر فى كتاب الله تعالى(١) .

---

(١) من روائع القرآن للبوطى ص ١٢١ ـ ١٢٢

المظهـر الثـانى

المفـردة القرآنية

اذا تأملت فى الكلمات التى تتألف منها الجمل القرآنية رأيتها تمتاز بمميزات ثلاث رئيسية هى :

١ ـ جمال وقعهـا فى السمع ٠

٢ ـ اتساقها الكامل مع المعنى ٠

٣ ـ اتساع دلالتها لما لا تتسع له عادة دلالات الكلمات الاخرى من المعانى والمدلولات ٠

وقد نجد فى تعابير بعض الادباء والبلغاء كالجاحظ والمتنبى كلمات تتصف ببعض هذه الميزات الثلاث أما أن تجتمع كلها معا ، وبصورة مطردة لا تتخلف أو تشذ ٠ فذلك مما لم يتوافر الا فى القرآن الكريم ٠

واليك بعض الامثلة القرآنية التى توضح هذه الظاهرة وتجليها :

أنظر الى قوله تعالى فى وصف كل من الليل والصبح : **« والليل اذا عسعس والصبح اذا تنفس(١) »** ألا تشم راحة المعنى واضحا قويا من كل من هاتين الكلمتين : عسعس ، وتنفس ؟

ألا تشعر أن الكلمة تبعث فى خيالك صورة المعنى محسوسا مجسما دون حاجة للرجوع الى قواميس اللغة ؟

وهل فى مقدروك أن تصور اقبال الليل ، وتمدده فى الآفاق المترامية بكلمة أدق وأدل من « عسعس » ٠

وهل تستطيع أن تصور انفلات الضحى من مخبأ الليل وسجنه بكلمة أروع من « تنفس » ؟

انك لو فتشت فى معاجم اللغة وقواميسها لا تجد فيها أدق من هاتين الكلمتين فى التعبير عن هذين المعنيين(٢) ٠

---

(١) التكوير : ١٧ ، ١٨

(٢) من روائع القرآن ص ١٤٢ ، ١٤٣

اقرأ قوله تعالى : ((**يأيها الذين آمنوا ، مالكم اذا قيل لكم : انفروا فى سبيل الله اثاقلتم الى الارض(٣)**)) .

وادرس الاداء الفنى الذى قامت به لفظة ((اثاقلتم)) بكل ما تكونت به من حروف ، ومن صورة ترتيب هذه الحروف ، ومن حركة التشديد على الحرف اللثوى ((الثاء)) والمد بعده ، ثم مجىء القاف الذى هو أحد حروف القلقلة ، ثم التاء المهموسة ، والميم التى تنطبق عليها الشفتان ، ويخرج صوتها من الانف ، ألا تجد نظام الحروف ، وصورة أداء الكلمة ذاتها أوحت اليك بالمعنى ، قبل أن يرد عليك المعنى من جهة المعاجم ؟ ألا تلحظ فى خيالك ذلك الجسم المثاقل ، يرفعه الرافعون فى جهد فيسقط فى أيديهم فى ثقل ؟ ألا تحس أن البطء فى تلفظ الكلمة ذاتها يوحى بالحركة البطيئة التى تكون من المثاقل ؟

جرب أن تبدل المفردة القرآنية ، وتحل محلها لفظة ((تثاقلتم)) ألا تحس أن شيئا من الخفة والسرعة ، بل والنشاط أوحت به ((تثاقلتم)) بسبب رصف حروفها ، وزوال الشدة ، وسبق التاء قبل الثاء ؟ اذن فالبلاغة تتم فى استعمال ((اثاقلتم)) للمعنى المراد ، ولا تكون فى ((تثاقلتم)) .

تأمل قوله تعالى : ((**فأصبح فى المدينة خائفا يترقب(١)**)) تجد لفظة ((يترقب)) ترسم بظلها الذى تلقيه فى الخيال هيئة الحذر المتلفت فى المدينة التى يشيع فيها الأمن والاطمئنان فى العــادة .

اقرأ قوله تعــالى : ((**يأيتها النفس المطمئنة ارجعى الى ربك راضــية مرضية فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى(٢)**)) .

وتأمل ما ضمنت من مدود : يا ــ ها ــ جعى ــ الى ــ خلى ــ فى ــ عبا ــ دى ــ خلى ــ تى وما ضمت من تشديد : أيتها ــ النفس ــ المطمئنة ــ جنتى .

وما ضمت من حركات الكسر : جعى ــ ربك ــ خلى ــ فى ــ دى ــ نتى

ثم تصور أن الميت مسجى فى كفن ، والقبر فاغر فاه ، ينتظر ضيفه الجديد ، لبضمه حينا من الزمن ، ثم يسلمه الى الأبدية الخالدة التى لا نهاية لهــا ، وتصور كذلك الدموع الصامتة يذرفها الأهل والاحباب لفراق عزيز أو حبيب ، عاش معهم حينا من الزمن ، ثم فارقهم الى صفر طويل ، لا عودة منه ، وتصور

---

(٣) التــوبة : ٣٨

(١) القصص : ١٨

(٢) الفجر : ٢٧ ــ ٣٠

الصراع النفس فى قلوبهم ، فرح فيما هو مقبل عليه من رحمة الله ونعيمه ، وحزن انسانى لابد منه عند الوداع ، فهل تجد أوقع أثرا ، وأدق تعبيرا عن هذا الموقف الجليل وهذا الحزن ، وتلك الدموع ، وذلك الامل العريض مما جاءت به تلك المفردات بكل ما حملت من مدود ، وشدات وغنات ، وحركات كسر ، ونونات ؟

وجرب أن تعيد قراءة الآيات مرات عدة ، وتأمل فى الحروف ورصفها ، والمفردات كل منها على حدة ، ثم فى مجموعها وتناسقها ، فلسوف تجد الحزن ، والرضى ، والطمأنينة قد امتزجت امتزاجا تاما ، وهيهات هيهات لانسان - مهما - أوتى حظا من الذوق والأدب - أن يبلغ الى هذا المستوى المعجز .

استمع الى قوله تعالى : ((**واذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ، يذبحون أبناءكم ، ويستحيون نساءكم ، وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم**(١))) ان القرآن استخدم مفردة واحدة ((يذبحون)) مشددة ((الباء)) ولم يستخدمها دون تشديد مراعيا بذلك تصوير ما حدث أولا ، وكثرة ما حدث ثانيا ، ونوع ما حدث ثالثا ، ولو جئنا بغيرها ما سد مسدها .

وانظر قوله تعالى : ((**انا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا ، فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسرورا**(٢))) ألا تجد مفردة ((العبوس)) فيها دقة بالغة حين صورت نظرة الكافرين الى ذلك اليوم ، انهم يجدونه عابسا مكفهرا ، وما أشد اسوداده ، فيه يفقد المرء الأمل والرجاء ، وكلمة ((قمطريرا)) بثقل طائها مشعرة بثقل هذا اليوم . وفى كلمتى ((النضرة والسرور)) تعبير دقيق عن المظهر الحسى لهؤلاء المؤمنين ، وما يبدو على وجوههم من الاشراق ، وعما يملأ قلوبهم من البهجة .

وانظر قوله تعالى : ((**فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز**(٣))) .

تجد كلمة ((زحزح)) تصور بظلها وجرسها مشهد الابعاد والتنحية بكل ما يقع فى هذا المشهد من أصوات ، وما يصحبه من ذعر الذى يمر بحسيس النار ويسمعه ويكاد يصلاه ، ولو فتشت جميع معاجم اللغة وقواميسها لا تجد كلمة تصور هذا المشهد الا كلمة ((زحزح)) .

وانظر الى القرآن حينما يصف دعوة امرأة العزيز للنسوة اللائى تحدثن ، منتقدات عن مراودتها لفتاها يوسف عن نفسه ، الى جلسة لطيفة رائعة فى بيتها لتطلعهن فيه على يوسف وجماله حتى يعذرنها فيما أقدمت عليه .

---

(١) البقرة : ٤٩ .
(٢) الانسان : ١٠
(٣) آل عمران : ١٨٥

لقد قدمت لهن فى ذلك المجلس طعاما ولا شك ، ولقد أوضح القرآن هذا ، ولكنه لم يعبر عن ذلك بالطعام ، فهذه انما تصور شهوة الجوع ، وتنتقل بالفكر الى « المطبخ » بكل ما فيه من ألوان الطعام ورائحته وأسبابه ٠ وهى صورة لا تتفق مع ما تريد الآية أن تضعه أمام خيالك من مظهر المجلس الأنيق الذى يضم نسوة بينهن امرأة العزيز يطلع عليهن فيه على حين غرة : يوسف ٠ فانظر الى الكلمة التى عبر بها البيان القرآنى عن الطعام فى هذه الحال : **((فلما سمعت بمكرهن أرسلت اليهن ، واعتدت لهن متكأ))**(١) « متكأ » كلمة تصور لك ذلك النوع من الطعام الذى انما يقدم الى المجلس تفكها وتبسطا ، وتجميلا للمجلس ، وتوفيرا لاسباب المتعة فيه ، ولذلك فالشأن فيه أن يكون الاقبال عليه فى حالة من الراحة والاتكاء ٠ فأى تعبير هذا الذى تمتد به الدقة فى تصوير المعنى الى هذا الحد غير تعبير القرآن الكريم(٢) ٠

وانظر قوله تعالى : **((وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة ، ووجوه يومئذ باسرة تظن أن يفعل بها فاقرة))(٢)** تجد الآية ترسم لوحتين احداهما للسعداء ، والأخرى للاشقياء وتجد كلمة « ناضرة » قد استقلت فى لوحة السعداء بتصوير أزهى لون وأبهاره ، كما استقلت كملة « باسرة » فى لوحة الاشقياء برسم أمقت لون وأنكاه(٤) ٠

وانظر الى القرآن حينما صور لنا كيف أنه عز وجل قد أهلك عادا بريح عاتية داهمتهم فأخذت تقتلعهم من الارض اقتلاعا ، وتطيرهم فى الفضاء ، شبه جسومهم الطوال وهى تتطاير من الارض فى سهولة سريعة بنخيل طوال ، قد نخرت ، واقتلعت جذورها من باطن الارض ، فهى قائمة على ظاهرها لا يمسكها أى شيىء ٠ فانظر كيف عبر عن ذلك بقوله : **((انا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى يوم نحس مستمر ، تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر))(١)** وتأمل فى كلمة « منقعر » كلمة واحدة ألانها التعبير القرآنى لتصوير رائع ، وجعلها تدل فى اشراق جميل على ما لايمكنك التعبير عنه بكلمة واحدة مهما حاولت ، فهى تدل على أن النخيل قد انقطعت أصولها من باطن الارض ولم تعد الا عمدانا قائمة على سطحها ، ان هذه الكلمة الرائعة المصورة العجيبة يهتز لها رأس البليغ طربا ٠

---

(١) يوسف : ٣١
(٢) من روائع القرآن ص ١٤٤
(٣) القيامة : ٢٢ ـ ٢٥
(٤) مباحث فى علوم القرآن للدكتور صبحى الصالح ص ٣٣٥
(١) القمـر : ١٩ ـ ٢٠

واقرأ قوله تعالى : **((فمثله كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث ، وان تتركه يلهث ، ذلك مثل القـوم الذين كذبوا باياتنـــا ، فاقصص القصص لعلهم يتفكرون))(٢)** ٠

لقد ضربه الله مثلا لمن كذب باياته فقال ان وغطته فهو ضال ، وان لم تعظه فهو ضال ، كالكلب ان طردته وزجرته فسعى لهث ، أو تركته على حاله أيضا لهث(٣) ٠

ثم تأمل هذه اللفظة العجيبة ((الكلب)) لقد استقلت برسم لوحة فنيــة رائعة أظهرت على صفحتها ضلال المكذب بايات الله فى جميع أحواله اذ كل شيىء يلهث ، فانما يلهث من اعياء أو عطش أو علة خلا الكلب فانه يلهث فى جميــع أحواله ، فى حال الدلال ، وفى حال الراحة ، وفى حال الصحة والمرض وحال الرى والعطش ٠ فانظر رعاك الله الى هذه الكلمة التى اختارها القـرآن انها تدل فى اشراق وروعة على ما لا يمكنك التعبير عنه بكلمة واحدة مهما حاولت ، وتأمل هذه الكلمة وانعم النظر فيها هل يصلح مكانها غيرها ؟

وتأمل قوله تعالى : **((ومنهم من يستمعون اليك أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون ، ومنهم من ينظر اليك أفأنت تهـدى العمى ولو كانوا لا يبصرون))(٤)** ٠

كيف دل على فضل السمع على البصر حين جعل مع الصمم فقدان العقل ، ولم يجعل مع العمى الا فقدان النظر(٥) ٠

وتأمل قوله تعالى : **((تطلع على الافئدة))(١)** أى توفى عليها وتشرف ٠ يقال : طلع الجبل واطلع عليه ٠ اذا علا فوقه ٠ ثم انعم النظر فى هذه الكلمــة العجيبة ((الأفئدة)) انها تصور لك هؤلاء القوم بصورة الاموات الاحيــاء ، لان الالم اذا صار الى الفؤاد مات صاحبه فأخبرنا القرآن بهذه اللفظة أنهم فى حال من يموت وهم لا يموتون ٠ فهل هناك فى اللغة العربية ـ على اتســـاع ـ مفرداتها لفظة تصور لك الشيىء ميتا حيا الا هذه اللفظة ؟

واقرأ قوله تعالى : **((أخرج منها ماءها ومرعاها))(٢)** وتأمل هاتين اللفظتين

---

(٢) الاعراف : ١٧٦
(٣) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص ٧٢٦ تحقيق السيد أحمد صقر ٠
(٤) يونس ٤٣
(٥) تأويل مشكل القرآن ص ٧
(١) الهمـزة : ٧
(٢) النـازعات : ٣١

« ماءها ، ومرعاها » كيف دل الله بهما على جميع ما أخرجه من الأرض قوتا ، ومتاعا للانام من العشب والشجر ، والحب والثمر والحطب والعصف واللباس والنار والملح لان النار من العيدان والملح من الماء(٣) .

واقرأ قوله تعالى فى وصف خمر الجنة **((لا يصدعون عنها ولا ينزفون))**(٤) وتأمل كيف نفى الله عنها بهذين اللفظين جميع عيوب الخمر ، وجمع بقوله : « ولا ينزفون » عدم العقل ، وذهاب المال ، ونفاذ الشراب(٥) .

هذه بعض الأمثلة القرآنية التى تثبت ما امتازت به مفردات القرآن الكريم من الجمال الصوتى ، والتناسق الفنى ، والايقاع الموسيقى ، والائتلاف المحكم ، والايحاء العجيب ، والتصوير البديع ، مما يدل على أن نظم هذه الالفاظ ليس من وضع البشر ، وانما هو شيىء فوق مقدورهم .

واسمع ما يقوله حجة الادب العربى الفقيد « مصطفى صادق الرافعى » رحمه الله عن ألفاظ القرآن الكريم :

« لو تدبرت ألفاظ القرآن فى نظمها لرأيت حركاتها الصوتية واللغوية تجرى فى الوضع والتركيب مجرى الحروف أنفسها فيما هى له من أمر الفصاحة، ولن تجدها الا مؤتلفة مع أصوات الحروف مساوقة لها فى النظم الموسيقى ، حتى ان الحركة ربما كانت ثقيلة فلا تعذب ولا تساغ فاذا هى استعملت فى القرآن رأيت لها شأنا عجيبا .. من ذلك لفظة « النذر » جمع نذير ، فان الضمة ثقيلة فيها لتواليها على النون والذال معا ، فضلا عن جسأة هذا الحرف ، ونبوه فى اللسان ، ولكنه جاء فى القرآن على العكس فى قوله تعالى : **((ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر))** فتأمل هذا التركيب ، وأنعم ثم أنعم على تأمله ، وتذوق مواقع الحروف ، وأجر حركاتها فى حس السمع ، وتأمل مواضع القلقلة فى دال « لقد » وفى الطاء من « بطشتنا » وهذه الفتحات المتوالية فيما وراء الطاء الى واو « تماروا » مع الفصل بالمد ، كأنها تثقيل لخفة التتابع فى الفتحات اذا هى جرت على اللسان ليكون ثقل الضمة عليه مستخفا بعد ، ولتكون هذه الضمة قد أصابت موضعها كما تكون الاحماض فى الاطعمة ثم ردد نظرك فى الراء من « تماروا » فانها ما جاءت الا مساندة لراء « النذر » حتى اذا انتهى اللسان الى هذه انتهى اليها من مثلها ، فلا تجف عليه ولا تغلظ ، ولا تنبو فيه ، ثم اعجب لهذه الغنة التى سبقت الطاء فى نون « أنذرهم »

---

(٣) تأويل مشكل القرآن ص ٥
(٤) الواقعة : ١٩
(٥) تأويل مشكل القرآن ص ٧

وفى ميمها ، وللغنة الاخرى التى سبقت الذال فى « النذر » وما حرف أو حركة فى الآية الا وأنت مصيب من كل ذلك عجبا فى موقعه والقصد به »(١) ٠

ويقول فى موضع آخر : « وفى القرآن لفظة غريبة هى من أغرب ما فيه ، وما حسنت فى كلام قط الا فى موقعها منه وهى كلمة « ضيزى »(٢) من قوله تعالى : ((**تلك اذن قسمة(٣) ضيزى**)) ومع ذلك فان حسنها فى نظم الكلام من أغرب الحسن وأعجبه ، ولو أردت اللغة العربية عليها ما صلح لهذا الموضع غيرها فان السورة التى هى منها وهى سورة « النجم » مفصلة كلها على الياء ، فجاءت الكلمة فاصلة من الفواصل ، ثم هى فى معرض الانكار على العرب ، اذ وردت فى ذكر الاصنام ، وزعمهم فى قسمة الاولاد ، فانهم جعلوا الملائكة والاصنام بنات الله ، مع وأدهم البنات(٤) فقال تعالى : ((**ألكم الذكر وله الانثى(٥) ؟ تلك اذن قسمة ضيزى**)) فكانت غرابة اللفظة أشد الاشياء ملاءمة لغرابة هذه القسمة التى أنكرها ، وكانت الجملة كلها كأنها تصور فى هيئة النطق بها الانكار فى الاولى والتهكم فى الاخرى ، وكان هذا التصوير أبلغ ما فى البلاغة ، وخاصة فى اللفظة الغريبة التى تمكنت فى موضعها من الفصل »(٦) ٠

ثم يسترسل فى الحديث عن ألفاظ القرآن الكريم فيقول : « ومما لا يسعه طوق انسان فى نظم الكلام البليغ ، ثم مما يدل على أن نظم القرآن مادة فوق الصنعة ، ومن وراء الفكر ، وكأنها صبت على الجملة صبا ، انك ترى بعض الالفاظ لم يأت فيه الا مجموعا ، ولم يستعمل منه صيغة المفرد ، فاذا احتاج الى هذه الصيغة استعمل مرادفها كلفظة « اللب » فانها لم ترد الا مجموعة كقوله تعالى : « ان فى ذلك لذكرى لاولى الالباب » وقوله «وليذكر أولو الالباب» ونحوهما ، ولم ترد فيه مفردة بل جاء مكانها « القلب » فى قوله تعالى : « ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد » وذلك لان لفظ « الباء » شديد مجتمع ، ولا يفضى الى هذه الشدة الا من اللام الشديدة المسترخية فلما لم تحسن اللفظة أسقطها من نظمه بتة ٠

وكذلك لفظ « الكوب » استعملت فيه مجموعة ، ولم يأت بها مفردة ،

---

(١) اعجاز القرآن للرافعى ص ٢٥٨

(٢) يقال : ضازه حقه وضامه : أى منعه ونقصه ، فهى قسمة جائرة ، والضيز : الجور ٠

(٣) النجم : ٢٢

(٤) أى دفنهن على الحياة ، كما كان من عادتهم ٠

(٥) النجم : ٢١

(٦) اعجاز القرآن للرافعى ص ٢٦١

لانه لا يتهيأ فيها ما يجعلها فى النطق – من الظهور والرقة والانكشاف وحسن التناسب – كلفظ « أكواب » الذى هو الجمع و « الأرجاء » لم يستعمل القرآن لفظها الا مجموعا ، وترك المفرد وهو « الرجأ » أى الجانب لعلة لفظه ٠ وأنه لا يسوغ فى نظمه كما ترى ٠

وعكس ذلك لفظة « الأرض » فانها لم ترد فيه الا مفردة ، ولم يرد فى القرآن صيغة الجمع « أرضين » ولما احتاج الى جمعها أخرجها على هذه الصورة التى ذهبت بسر الفصاحة ، وذهب بها حتى خرجت من الروعة بحيث يسجد لها كل فكر سجدة طويلة وذلك فى قوله تعالى : « الله الذى خلق سبع سموات ومن الارض مثلهن يتنزل الامر بينهن » ولم يقل « وسبع أرضين » لهذه الجسأة التى تدخل للفظ ، ويختل بها النظم اختلالا »(١) ٠

ويمضى فى الحديث عن ألفاظ القرآن فيقول : « وتأمل قوله تعالى : « فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات » فانها خمسة أسماء ، أخفها فى اللفظ « الطوفان ، والجراد ، والدم ، وأثقلها « القمل ، والضفادع ، فقدم « الطوفان » لمكان المدين فيها ، حتى يأنس اللسان بخفتها ، ثم الجراد وفيها كذلك مد ، ثم جاء باللفظين الشديدين مبتدئا بأخفهما فى اللسان وأبعدهما فى الصوت لمكان تلك الغنة فيه ، ثم جئ بلفظة « الدم » آخرا ، وهى أخف الخمسة وأقلها حروف ليسرع اللسان فيها ، ويستقيم لها ذوق النظم ، ويتم بها هذا الاعجاز فى التركيب ، وأنت فهمما قلبت هذه الاسماء الخمسة ، فانك لا ترى لها فصاحة الا فى هذا الموضع ، فلو قدمت أو أخرت لبادرك التهافت والتعثر ، ولاعنتك أن تجئ منها بلفظ ، أو نظم فصيح ٠

ثم لا ريب أحالك ذلك عن قصد الفصاحة ، وقطعك دون غايتها ، ثم لخرجت الأسماء فى اضطراب النطق على ذلك بالسواء ، ليس يظهر أخفها من أثقلها ، فانظر كيف يكون الاعجاز فيها ليس فيه اعجاز بطبيعته »(١) ٠

واسمع ما يقوله المرحوم الشيخ الزرقانى فى موضوع خصائص أسلوب القرآن الكريم : « للقرآن مسحة خلابة عجيبة تتجلى فى نظامه الصوتى ، وجماله اللغوى ، ونريد بنظام القرآن الصوتى : اتساق القرآن وائتلافه فى حركاته وسكناته ، ومداته وغناته ، واتصالاته وسكتاته ، اتساقا عجيبا ،

---

(١) اعجاز القرآن للرافعى ص ٢٦٤ – ٢٦٥
(١) اعجاز القرآن للرافعى ص ٢٦٧

وائتلافا رائعا ، يسترعى الاسماع ، ويستهوى النفوس ، بطريقة لا يمكن أن يصل اليها أى كلام آخر من منظوم ومنثور ٠

ونريد بجمال القرآن اللغوى ، تلك الظاهرة العجيبة التى امتاز بها القرآن فى وصف حروفه وترتيب كلماته ، ترتيبا دونه كل ترتيب تعاطاه الناس فى كلامهم ، ولقد وصل هذا الجمال اللغوى الى قمة الاعجاز ، بحيث لو دخل فى القرآن شيىء من كلام الناس ، لاعتل مذاقه فى أفواه قارئيه ، واختل نظامه فى آذان سامعيه ٠ ومن عجيب أمر هذا الجمال اللغوى ، وذلك النظام الصوتى، أنهما كما كانا دليل اعجاز من ناحية ، كانا سورا منيعا لفظ القرآن من ناحية أخرى ، وذلك أن من شأن الجمال اللغوى والنظام الصوتى أن يسترعى الأسماع ، ويثير الانتباه ، ويحرك داعية الاقبال فى كل انسان الى هذا القرآن الكريم ، وبذلك يبقى أبد الدهر سائدا على ألسنة الخلق وفى آذانهم ويعرف بذاته ومزاياه بينهم فلا يجرؤ أحد على تغييره وتبديله ، مصداقا لقوله سبحانه : « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون «(٢) ٠

---

(٢) مناهل العرفان جـ ٢ ص ٢٠٨

المظهر الثالث

الجملة القرآنية وصياغتها

ان دراسة الجملة القرآنية تتصل اتصالا مباشرا بدراسة المفردة القرآنية لان هذه أساس الجملة ، ومنها تركيبها • واذا كان علماء البلاغة يجعلون البلاغة درجات ، فانهم مقرون ـ دون جدال ـ أن صياغة العبارة القرآنية فى الطرف الأعلى من البلاغة الذى هو الاعجاز ذاته • وللاعجاز فيها وجوه كثيرة •

فمنها : ما تجده من التلاؤم والاتساق الكاملين بين كلماتها ، وبين تلاحق حركاتها ، وسكناتها ، فالجملة فى القرآن تجدها دائما مؤلفة من كلمات وحروف، وأصوات يستريح لتالفها السمع والصوت والنطق ، ويتكون من تضامها نسق جميل ينطوى على ايقاع رائع ، ما كان ليتم لو نقصت من الجملة كلمة أو حرف أو اختلف ترتيب ما بينها بشكل من الاشكال •

اقرأ قوله تعالى : ((**ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر ، وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر**))(١) وتأمل تناسق الكلمات فى كل جملة منها ، ثم دقق نظرك ، وتأمل تالف الحروف الرخوة مع الشديدة مع المهوسة والمجهورة وغيرها ، ثم حاول أن تمعن فى تالف وتعاطف الحركات والسكنات والمدود اللاحقة ببعضها • فانك اذا تأملت فى ذلك ، علمت أن هذه الجمل القرآنية • انما صبت من الكلمات والحروف والحركات فى مقدار ، وأن ذلك انما قدر تقديرا بعلم اللطيف الخبير • وهيهات للمقاييس البشرية أن تضبط الكلام بهذه القوالب الدقيقة(٢) •

ومنها : أنك تجد الجملة القرآنية تدل بأقصر عبارة على أوسع معنى تام متكامل لا يكاد الانسان يستطيع التعبير عنه الا بأسطر وجمل كثيرة ، دون أن تجد فيه اختصارا مخلا ، أو ضعفا فى الدلالة •

اقرأ قوله تعالى : ((**خذ العفو ، وأمر بالعرف ، وأعرض عن الجاهلين**))(٣)

ثم تأمل كيف جمع الله بهذا الكلام كل خلق عظيم ، لان فى أخذ العفو صلة القاطعين والصفح عن الظالمين ، واعطاء المانعين • وفى ((الامر بالمعروف))

---

(١) القمـر : ١١ ، ١٢ ، ١٣

(٢) من روائع القرآن ص ١٣٧

(٣) الاعراف : ١٩٩

تقوى الله ، وصلة الرحم ، وصون اللسان عن الكذب ، وغض الطرف عن الحرمات • وفى « الاعراض عن الجاهلين » الصبر والحلم وتنزيه النفس عن مماراة السفيه ، ومنازعة اللجوج(١) •

واقرأ قوله تعالى مخاطبا آدم عليه السلام : ((**ان لك ألا تجوع فيها ، ولا تعرى ، وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى**))(٢) ثم تأمل كيف جمع الله بهذا الكلام أصول معايش الانسان كلها من طعام وشراب وملبس ، ومأوى •

واقرأ قوله تعالى : ((**وأوحينا الى أم موسى أن أرضعيه ، فاذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى انا رادوه اليك ، وجاعلوه من المرسلين**))(٣) وتأمل كيف جمعت هذه الآية الكريمة ـ على وجازتها ـ بين أمرين ، ونهيين ، وخبرين ، وبشارتين • أما الامران فهما :

« أرضعيه » و « ألقيه فى اليم » وأما النهيان فهما « لا تخافى » و « لا تحزنى » •

وأما الخبران فهما « أوحينا » و « خفت » وأما البشارتان فهما « انا رادوه اليك » و « جاعلوه من المرسلين » •

انه الاعجاز يلبس ثوب الايجاز فتخر لعظمته جباه أساطين البيان ، وتسجد لجماله أفكار دهاقين الكلام •

وتأمل سورة « الكوثر » وهى أقصر سورة فى القرآن اذ هى ثلاث آيات قصار كيف تضمنت ـ على قلة آياتها ـ الاخبار عن مغيبين : أحدهما ـ الاخبار عن الكوثر « نهر فى الجنة » وعظمته وسعته وكثرة أوانيه ، والثانى ـ الاخبار عن « الوليد بن المغيرة » وكان عند نزولها ذا مال وولد ، ثم أهلك الله سبحانه ماله وولده ، وانقطع نسله •

ومنها : اخراج المعنى المجرد فى مظهر الامر المحس الملموس ، ثم بث الروح والحركة فى هذا المظهر نفسه •

ومكمن الاعجاز فى ذلك ، أن الالفاظ ليست الا حروفا جامدة ذات دلالة

---

(١) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص ٥

(٢) طه : ١٨ ـ ١٩

(٣) القصص : ٧

لغوية على ما أنيط بها من المعانى ، فمن العسير جدا أن تصبح هذه الالفاظ وسيلة لصب المعانى الفكرية المجردة فى قوالب من الشـــخوص والاجرام والمحسوسات ، تتحرك فى داخل الخيال كأنها قصة تمر أحداثها على مسرح يفيض بالحياة والحركة المشاهدة الملموسة .

ومقياس هذا الذى نقول ، أنك اذا أقبلت تقرأ شيئا من كتاب الله عز وجل بامعان ، رأيت نفسك تستقبل معانى الآيات بكل من عقلك وخيالك معا ، فالعقل يفهم والخيال يتصور ، وذلك على خلاف المألوف والمعروف لدى قراءة أى كلام أو كتاب آخر ، فالعقل وحده الذى يتفاعل مع الكلام والمعانى ، اللهم الا تلك المواضيع الاخرى التى تقوم فى جوهرها الاصلى على التخييـل والتصوير ، ولكن القرآن ، فى مواضيعه كلها ، انما تقوم أداته التعبيرية على التصوير والتجسيم .

وانظر بعقلك وخيالك الى القرآن الكريم حينما يصور حالة المتكبر وعنفوانه واستعلائه على الحق وجنوحه عن السبيل الصحيح فيقول : **((انا جعلنا فى أعناقهم أغلالا ، فهى الى الاذقان فهم مقمحون ، وجعلنا من بين أيديهم سدا ، ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون))(١) .**

انه تعبير بلغ أسمى درجات الروعة ، انه يجعلك تتخيل انسانا التف حول عنقه غل عريض مرتفع الى الذقن جعل رأسه صاعدا الى الأعلى لا يتحرك ، ثم هو يقف فى مكان قد سد عليه بجدران غليظة مرتفعة من أمامه وخلفـه ، وقد غش الظلام على بصره ، فهو لا يملك حراكا نحو أى اتجاه ، تلك هى صورة من لم ينفع معه المنطق ودلائل الفكر والعقل ، وظل مع ذلك عاكفا على غيه وضلاله .

واستمع الى القرآن الكريم وهو يصور لك قيام الكون على أساس من النظام الرتيب والتنسيق البديع الذى لا يتخلف ، ولا يلحقه الفساد . فيقول: **((ان ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا ، والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ، ألا له الخلق والامر))(١) .**

انه يصور لك هذا المعنى فى مظهر من الحركة المحسوسة الدائرة بين عينيك ، وكأنك أمام آلات تتحرك بسرعة دائبة فى نظام مستمر يعيهـا ويتصورها الشعور والخيال .

---

(١) يس : ٨ ـ ٩
(١) الاعراف : ٥٤

وانظر الى القرآن الكريم حين يعمد الى معنى فكرى مجرد فيخرجه لك فى مظهر حرب متلاحمة بين طرفين تبصر أحداثها أمامك حية مجسمة ٠ فيقول: ((**بل نقذف بالحق على الباطل فيدفعه فاذا هو زاهق ، ولكم الويل مما تصفون**))(٢) فالقذف والدفع والزهق كلمات ما كان ليخطر فى بال أى متأمل أن يستعملها فى مجال التعبير عن ان الحق هو الذى تتقبله النفوس والعقول الحرة دائما ، ولكن المعجزة القرآنية هى التى طوعت مختلف ألفاظ اللغة لمختلف المعانى والافكار(٣) ٠

ثم انظر الى القرآن الكريم وهو يصور الهزيمة والجبن والرعب والقلق النفسى الذى يسيطر على قلوب المنافقين فيقول : ((**لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلا لولوا اليه وهم يجمحون**))(٤) ٠

تأمل كيف بسط معنى الهزيمة والجبن على هذه اللوحة التصويرية الرائعة، وأخرج هذا المعنى الفكرى فى صورة جماعات من الناس تائهة زائغة العين لما يسيطر عليها من الرعب ، فهى تنقذف هنا وهناك بحثا عن المأمن والمهرب فى حركات عجيبة غريبة ٠ ثم تأمل الكلمات التى استقلت برسم هذه الصورة الرائعة العجيبة ٠ تأمل الكلمات ((ملجأ ، مغارات ، مدخلا)) انها تصور فى ذهنك شكلا معينا للملاذ الذى يبحث عنه المنهزم والخائف ٠ بدءا من الشكل الطبيعى المألوف وهو الملجأ العادى من دار أو غرفة أو جماعة من الناس ، الى الشكل الذى لا يألفه ويرتضيه الا من اشتد خوفه وهو المغارة فى باطن الارض أو بطن الجبل ، الى الشكل الذى هو أبعد فى القبول والالف من كليهما : وهو المدخل ، أى المكان الضيق الذى لا يكاد يستطيع هذا الخائف أن يقتحمه الا بجهد ، ولا يكاد يستطيع أن يستقر فيه الا تضاؤلا والتصاقا ، ثم تأمل كلمة ((يجمحون)) انها ترسم فى خيالك صورة مضحكة ساخرة لهؤلاء المنافقين ان هذه الكلمات التى اختارها الخالق جل وعلا ، وصاغها هذه الصياغة العجيبة قد أبرزت هذا المعنى الفكرى فى صورة متحركة ساخرة تجسدت فى الخيال حتى لتكاد العين الباصرة تراها ، واليد اللامسة تتقراها ٠

ثم استمع الى القرآن الكريم وهو يصور لك كراهية أهل الجاهلية للانثى اذ تولد فى دار أحدهم ، ويكشف لك عما يعتمل فى صدر من بشر بها من

---

(٢) الانبياء : ١٢
(٣) من روائع القرآن ص ١٥٢
(٤) التوبة : ٥٧

الكرب والغيظ والعصبية والصراع بين القسوة الشديدة المتولدة عن الغيظ العنيف ، والرحمة الضعيفة الصادرة عن العاطفة الأبوية ، انه يصور ذلك كله بأسلوب رائعتسجد له البلاغة فى أسمى مظاهرها وألوانها فيقول : **((واذا بشر أحدهم بالانثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ، أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ألا ساء ما يحكمون))(١) ٠**

تأمل بعقلك وخيالك هذا الاسلوب العجيب كيف أخرج هذه المعانى النفسية الخفية فى صورة حسية متحركة ملموسة ؟ ثم أنعم النظر فى الكلمات التى استقلت برسم هذه الصورة البديعة ٠

تأمل كلمة ((بشر)) فقد صورت بصوتها وظلها ، وجرسها تهكم من حوله به ٠ وتأمل قوله : ((ظل وجهه مسودا وهو كظيم)) فقد صور بنظمة العجيب شدة الكرب الذى انتابه ، وتأمل قوله : ((يتوارى من القوم من سوء ما بشر به)) فقد صور بدقة تركيبه واحكام صياغته وقع النبأ الذى حملة اليه القوم مبشرين _ أى متهكمين ومشفقين _ وتأمل قوله ((أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب)) فقد صور بجمال نظمه وروعة بيانه الحيرة التى تراوده وتطوف بخاطره ٠ وتأمل المفردة القرآنية الرائعة ((يدسه)) كيف أنها تشف لك عن الغيظ والعصبية والشدة التى تلبست بها حالة الرجل وأعضاؤه، وكيف تصور لك مقاومة الدفع المغتاظ للرحمة فى مظهرها الضعيف المتألم المسالم ؟

---

(١) النحل : ٥٨

الفصل الرابع

الاعجاز والبلاغة

لقد نشب صراع حاد وعنيف بين علماء البلاغة حول الصور والالوان البلاغية فى القرآن الكريم · هل هى معجزة أو غير معجزة ؟

ففريق منهم يرى أنها معجزة ، ويجعلها من وجوه الاعجاز فى القرآن الكريم · وفريق آخر يرى أنها غير معجزة ، وينفى أن تكون من وجوه الاعجاز فى القرآن الكريم · ومن هذا الفريق « أبو بكر الباقلانى »(١) ·

والمسألة تحتاج الى بحث وتحقيق ، وفى هذا الفصل من البحث سأقوم بتحقيقها ، واظهار وجه الصواب فيها فأقول طالبا العون والتوفيق من الله وحده :

ان هذه الصور والالوان معجزة فى القرآن ، واعجازها راجع الى نظمها · فالقرآن الكريم – كما سبق أن وضحنا – معجز بنظمه ، وهذه الصور والالوان قد اقتضاها هذا النظم المعجز فأصبحت جزءا منه فتكون معجزة ولقد أشار الى ذلك الشيخ عبد القاهر الجرجانى عندما تعرض لتوضيح الاستعارة فى قوله تعالى : « **واشتعل الرأس شيبا(٢)** » فقال : « ان فى الاستعارة ما لايمكن بيانه الا من بعد العلم بالنظم ، والوقوف على حقيقته ·

ومن دقيق ذلك وخفيه أنك ترى الناس اذا ذكروا قوله تعالى : « واشتعل الرأس شيبا » لم يزيدوا فيه على ذكر الاستعارة ، ولم ينسبوا الشرف الا اليها ، ولم يروا للمزية موجبا سواها · هكذا ترى الامر فى ظاهر كلامهم ، وليس الامر على ذلك ، ولا هذا الشرف العظيم ، ولا هذه المزية الجليلية ، وهذه الروعة التى تدخل على النفوس عند هذا الكلام لمجرد الاستعارة ، ولكن لان يسلك بالكلام طريق ما يسند الفعل فيه الى الشيىء ، وهو لما هو من سببه ، فيرفع به ما يسند اليه ، ويؤتى بالذى الفعل له فى المعنى منصوبا بعده ، مبينا أن ذلك الاسناد ، وتلك النسبة الى ذلك الاول انما كان من أجل هذا الثانى ، ولما بينه وبينه من هذا الاتصال والملابسة كقولهم : طاب زيد نفسا ، وقر عمرو عينا ، وتصبب عرقا ، وكرم أصلا ، وحسن وجها ، وأشباه ذلك

---

(١) أنظر اعجاء القرآن للباقلانى ص ١٦٩

(٢) مريم : ٤

مما تجد الفعل فيه منقولا عن الشىء الى ما ذلك الشىء من سببه ، وذلك أنا نعلم أن « اشتعل » للشيب فى المعنى ، وان كان هو للرأس فقط ، كما أن « طاب » للنفس ، و « قز » للعين ، و « تصبب » للعرق ، وان أسند الى ما أسند اليه ، يبين أن الشرف كان لان سلك فيه هذا المسلك وتوخى به هذا المذهب ، أن تدع هذا الطريق فيه ، وتأخذ اللفظ فتسنده الى الشيب صريحا فتقول : « اشتعل شيب الرأس » أو « الشيب فى الرأس » ، ثم تنظر هل تجد ذلك الحسن ، وتلك الفخامة ؟ وهل ترى الروعة التى كنت تراها ؟ فان قلت : فما السبب فى أن كان « اشتعل » اذا استعير للشيب على هذا الوجه كان له لفضل ، ولم بان بالمزية من الوجه الآخر هذه البينونة ؟ فان السبب أنه يفيد مع لمعان الشيب فى الرأس ، الذى هو أصل المعنى ، الشمول ، وأنه قد شاع فيه ، وأخذه من نواحيه ، وأنه قد استقر به ، وعم جملته ، حتى لم يبق من السواد شىء ، أو لم يبق منه الا ما لا يعتد به • وهذا ما لا يكون اذا قيل : « اشتعل شيب الرأس » أو « الشيب فى الرأس بل لا يوجب اللفظ حينئذ أكثر من ظهوره فيه على الجملة ، ووزان ذلك أن تقول : « اشتعل البيت نارا » فيكون المعنى أن النار قد وقعت فيه وقوع الشمول ، وأنها استولت عليه ، وأخذت فى طرفيه ووسطه ، وتقول : « اشتعلت النار فى البيت » فلا يفيد ذلك ، بل لا يقتضى أكثر من وقوعها فيه ، واصابتها جانبا منه ، فأما الشمول ، وأن تكون قد استولت على البيت ، وابتزته فلا يعقل من اللفظ ألبتة • ونظير هذا فى التنزيل قوله عز وجل : **« وفجرنا الارض عيونا(١) »** التفجير للعيون فى المعنى ، وواقع على الارض فى اللفظ ، كما أسند هناك الاشتعال الى الرأس • وقد حصل بذلك من معنى الشمول ها هنا مثل الذى حصل هناك •

وذلك أنه قد أفاد أن الارض قد كانت صارت عيونا كلها ، وأن الماء كان يفور من كل مكان فيها ولو أجرى اللفظ على ظاهره فقيل : « وفجرنا عيون الارض » ، « أو العيون فى الارض » لم يفد ذلك ، ولم يدل عليه ، ولكان المفهوم منه أن الماء قد كان فار من عيون متفرقة فى الارض ، وتبجس من أماكن فيها(٢) » •

من هذا النص يتضح لنا أن عبد القاهر يرجع جمال الاستعارة وشرفها وروعتها فى القرآن الكريم الى نظمها العجيب البديع ، وكم كنت أود أن يتناول هذا الاديب الذواقة الصور والالوان البلاغية فى القرآن بهذه العبارة الفياضة وبتلك الطريقة البيانية الرائعة التى تكشف عن الجمال الأخاذ والاعجاء الرائع

---

(١) القمر : ١٢

(٢) دلائل الاعجاز ص ٧٩ ـ ٨٠ وانظر تلخيص البيان للشريف الرضى ص ٢٢٠

الذى يكمن فى هذه الصور ، وينبع من نظمها العجيب الذى لا يقدر على مثله بشر • ولكنه وقف عند لمحة من لمحاته الجزئية شأنه فى ذلك شأن غيره من بلغاء عصره •

وأنا أضيف الى ما قاله الشيخ عبد القاهر أن جمع الصور والالوان البلاغية ينطبق عليها ما انطبق على الاستعارة فهى معجزة ، واعجازها يكمن فى نظمها ، وهذا هو محط الفرق بينها فى القرآن وبينها فى كلام العرب فهى معجزة فى القرآن لان نظمها معجز ، وغير معجزة فى كلام العرب لان نظمها غير معجز •

وقد خفيت هذه الحقيقة على بعض علماء البلاغة كالباقلانى فنفى أن تكون هذه الالوان والصور معجزة فى القرآن الكريم لانها توجد فى الشعر ، وغاب عنه الفرق بين هذه الصور والالوان فى القرآن وبينها فى كلام العرب واليك ايها القارئ الكريم بعض الامثلة القرآنية التى توضح هذه الحقيقة وتجليها •

من روائع التشبيه فى القرآن الكريم :

قال تعالى : ((**انما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض مما يأكل الناس والانعام ، حتى اذا أخذت الارض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها ، أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالامس(١)**)) •

شبه القرآن حال الدنيا فى سرعة تقضيها ، وانقراض نعيمها ، واغترار الناس بها ، بحال ماء نزل من السماء وأنبت أنواع العشب ، وزين بزخرفها وجه الارض كالعروس اذا أخذت الثياب الفاخرة ، حتى اذا طمع أهلها فيها ، وظنوا أنها مسلمة من الجوائح أتاها بأس الله فجاءة فكأنها لم تكن بالامس •

تأمل بعقلك وخيالك وذوقك نظم الآية الكريمة انها مكونة من عشر جمل لو سقط منها شئ اختل التشبيه ، وانظر الى هذه الجمل تجد كل جملة تعبر عن مشهد من مشاهد الحياة الدنيا ، وقد رتبت ترتيبا عجيبا كأن كل جملة منها تلد التى تليها ، وقد تكونت كل جملة من طائفة من الكلمات تالفت بأصواتها وظلالها وأجراسها فعبرت أصدق تعبير عن المشهد الذى استقلت به ، ان نظمها مفصل على معناها بمقدار ، بحيث اذا أخرت أو قدمت أو غيرت كلمة بأخرى أو حرفا بآخر اختل المعنى ، وتبعثرت مشاهد الصورة الدنيوية •

قال تعالى : ((**مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف ، لا يقدرون على شئ مما كسبوا(٢)**)) • شبه القرآن أعمال

---

(١) يونس : ٢٤

(٢) ابراهيم : ١٨

الذين كفروا فى ضياعها ، وذهابها الى غير عودة بهيئة رماد تذروه الرياح وتذهب به بددا ، الى حيث لا يتجمع أبدا ٠

تأمل نظم الآية تجد كل كلمة قارة فى مكانها ، مطمئنة فى موضعها لاتشكو قلقا ولا اضطرابا ، معبرة فى دقة وصدق عن معناها ، وتأمل تناسق الكلمات وتالفها ، وترتيب الجمل وتعانقها ، ومخارج الحروف وأصواتها ، وايحاءات الالفاظ واشاراتها تجد نظما عجيبا لا يقدر عليه الا خالق الارض والسموات ٠

تأمل كلمة « رماد » انها توحى بخفة الوزن ، وتأمل ، « اشتدت » فانها توحى بسرعة الرياح وتأمل كلمة « عاصف » فانها توحى بالعنف ٠

وتأمل كيف أبرز لك هذا التشبيه ببديع نظمه الصورة حية متحركة كأنك تراها وتلمسها ٠

قال تعالى : **« ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله ، وتثبيتا من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل ، فآتت أكلها ضعفين ، فان لم يصبها وابل فطل(١) »** ٠

شبه القرآن الصدقات التى تنفق ابتغاء مرضاة الله فى كثرة ثوابها ومضاعفة أجرها بجنة فوق ربوة أصابها مطر غزير فأخصبت ترتبتها ، وتضاعف أكلها ٠

تشبيه رائع وجميل يهز العواطف ، ويحرك الاحاسيس والمشاعر ، وتسجد له البلاغة فى أسمى معانيها وألوانها ٠

تأمل نظم الآية العجيب كلمات الهية لا يصلح فى مكانها غيرها تعبر عن معانيها فى دقة واحكام ، وتنبعث منها لطائف وأنوار ، وينطوى تحتها الكثير من العجائب والاسرار ، وجمل ربانية متناسقة متلاحقة قد فصلت على معانيها بمقدار ، وحروف ذات أصوات وأنغام تبعث فى الصورة الحركة وتبث فيها الحياة ٠

انما من يقرأ الآية الكريمة ، ويتذوق حلاوتها يخيل اليه أنه يرى هذه الصورة الغيبية الخفية ماثلة أمام عينيه وأنه يلمسها ويتقراها بيدية ٠ أبعد هذا التصوير يأتى مكابر جهول يصف التشبيه القرآنى بأنه عن الاعجاز معذول ؟

---

(١) البقرة : ٢٦٥

قال تعالى : ((**مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء ، كمثل العنكبوت اتخذت بيتا ، وان أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون(٢)**)) ٠

شبه القرآن الكريم حال هؤلاء الذين اتخذوا من دون الله أندادا فى لجوئهم واحتمائهم بهؤلاء الانداد الضعفاء المتناهين فى الضعف بحال العنكبوت حينما تأوى الى بيتها الضعيف الواهن وتحتمى به ٠

صورة عجيبة تلح على الحس والوجدان ، وتجتذب اليها الالتفات ، وتسترعى الانتباه ، وتسترق الاسماع وتبهر الالباب وتستولى على الاحاسيس والمشاعر ، ويقف أمامها دهاقين الكلام حيارى يتساءلون كيف نظمت هذه الصورة ؟ وكيف تكونت ؟ ثم لا يجدون من يجيبهم على تساؤلاتهم ، لان البشر مهما أوتوا من البراعة والبيان لا يمكنهم الوصول الى معرفة سر نظم القرآن ٠

انها تصور لك هؤلاء العباد الغافلين بصورة العناكيب الضئيلة الواهنة ، وتصور لك هؤلاء الانداد الضعفاء العاجزين بصورة بيت العنكبوت الذى يضرب به المثل فى الضعف والوهن ٠

وأظنك أيها القارىء الكريم لست فى حاجة الى أن أحدثك عن نظم هذه الصورة البلاغية فذلك متروك لذوقك واحساسك ، ولكننى أدعوك الى النظر والتأمل فى الكلمات التى اختيرت للمشبه به ونظمت منها صورته ((**كمثل** العنكبوت اتخذت بيتا ٠٠)) هل فى مقدورك أو فى مقدور أى بليغ مهما كان حظه من الفصاحة والبيان ، ومهما كان يحفظ من مفردات اللغة العربية أن يأتى بألفاظ تسد مسد هذه الالفاظ التى نظمت منها صورة المشبه به ؟ ان أحدا من البشر لن يستطيع ، واللغة العربية على اتساع مفرداتها ليس فيها ما يسد مسد هذه الالفاظ ٠

انها الصياغة الالهية يقف البشر أمامها دائما عاجزين حيارى مذهولين ٠

قال تعالى : ((**واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها ، فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ، ولو شئنا لرفعناه بها ، ولكنه أخلد الى الارض ، واتبع هواه فمثله كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث(١)**)) ٠

تأمل الصورة التشبيهية التى اشتملت عليها الآية الكريمة ٠

---

(٢) العنكبوت : ٤١

(١) الاعراف : ١٧٥

لقد شبه القرن الكريم فى هذه الآية حال المكذب بايات الله فى اصراره على ضلاله فى جميع أحواله بحال الكلب فى ادامه لهثانه •

انها صورة فنية رائعة أحكم القرآن الكريم صياغتها ، وأجادت الريشة الالهية رسمها ، تكشف فى جلاء ووضوح عن حقيقة هذا المكذب الضال ، انه حقير قذر ، لا يؤثر فيه النصح والارشاد ولا ينفع معه الوعظ والتذكير ، قد ركب رأسه ، ولج فى ضلاله ، واتخذ الشيطان الها من دون الله ثم تأمل الكلمات التى نظمت منها صورة المشبه به لا تجد فى مفردات اللغة - على كثرتها ، من يقوم مقامها ويسد مسدها ، ثم تأمل كلمة « الكلب » وحدها لا تجد كلمة فى اللغة تصور هذا المعنى وتبرزه فى صورة حية متحركة سواها ، اذ كل مخلوق انما يلهث من مرض أو عطش أو اعياء الا الكلب فانه يلهث فى جميع أحواله فى حال الدلال ، وفى حالة الراحة ، وفى حالة الصحة والمرض وفى حالة الرى والعطش •

قال تعالى : **« وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون(١) »** •

شبه القرآن الكريم الحور العين باللؤلؤ المكنون فى الصفاء والنقاء والهدوء والصيانة •

تأمل نظم هذه الصورة التشبيهية الالهية انه فوق طاقة البشر • ثم تأمل هذه الكلمة العجيبة « اللؤلؤ » هل فى مقدورك أو فى مقدور أى بليغ مهما أوتى من البراعة والبيان أن يأتى بكلمة أخرى تؤدى معناها ، وتصور ما صورته ؟ ثم تأمل الدقة فى وصف هذا اللؤلؤ بكونه مكنونا •

ان اللؤلؤ فيه الصفاء والهدوء والنقاء ، وهو أحجار كريمة من شأنها أن تصان ويحرص عليها •

تأمل الارتباط العجيب والصلة الوثيقة بين الحور العين واللؤلؤ المكنون • انه الاعجاز يلبس ثوب التشبيه فيقف البلغاء أمامه ضعفاء قد استولت عليهم الحيرة وسيطرت على عقولهم الدهشة وداعبت أنامل الاعجاب حبات قلوبهم فخروا ساجدين لعظمته ، وشهدوا بأنه البيان الالهى الذى لا يقدر عليه بشر •

قال تعالى : **« وهى تجرى بهم فى موج كالجبال(١) »** :

---

(٢) هود : ٤٢

(١) الواقعة : ٢٢ ، ٢٣

شبه القرآن الكريم الموج الذى تمخر عبابه سفينة نوح عليه السلام بالجبال فى الضخامة ، والارتفاع تشبيه رائع جميل يصور للعين هذه الامواج المتلاطمة ، كما يصور للنفس ما يحس به ركاب هذه السفينة • ثم تأمل هذه الكلمة الالهية « الجبال » هل فى مفردات اللغة - على كثرتها » من يقدم مقامها فى هذا الموضع ، ويؤدى معناها ، ويوحى بما توحى به ، ويصور ما تصوره ؟

واذا كان من الشعراء والكتاب من شبه بالجبال ، فانما هو متأثر بالقرآن ولكن شتان ما بين نظم القرآن ونظم الأنام • انه يشبه بالجبال ويحسب أن البيان كلمات متراصة بلا نظام ، ولكن ما هكذا يا سعد تورد الابل • ان النظم القرآنى سر عجيب لا يعرفه الا من يعلم الخبء فى السموات والارض وكنز ثمين لا يملك مفتاحه الا علام الغيوب •

قال تعالى : **((والقمر قد رناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم(١)))** •

شبه القرآن الكريم الهلال فى آخر الشهر حين يصير دقيقا نحيلا محدودبا بالعرجون القديم •

تشبيه الهى عجيب يصور للعين القمر كما تراه ، ويصوره للنفس كما تحس به •

تأمل كلمة « العرجون » كيف رسمت بظلها وايحائها هذه الصورة الصادقة الجميلة ؟ وكيف استوعبت أجزاءها فى دقة واحكام ؟ انها تريك هذا الهلال وكأنه فى السماء كوكب تائه لا أهمية بأمره وتحمل الى نفسك ضالته ونحوله معا ثم تأمل الدقة فى وصف هذا العرجون بكونه قديما • ان هذه الصورة لا تتم الا بهذا الوصف • ثم فتش فى مفردات اللغة هل تجد فيها كلمة ترسم هذا المنظر سوى هذه الكلمة ؟

ولكى يستبين لك الاعجاز فى النظم القرآنى انظر الى صورة هذا الهلال فى كلام البشر • انظر الى ابن المعتز حين وصف هذا الهلال وقد خيل اليه أنه أحسن وأجاد ، وأتى بما لم يأت به غيره قال :

انظر اليه كزورق من فضة   قد أثقلته حمولة من عنبر

انه رسم لهذا الهلال الجميل صورة شوهاء متخيلة ، فأين الزورق الضخم من هذا الهلال النحيل ؟

---

(١) يس : ٣٩

تأمل الصياغة القرآنية فى جمالها وصدقها واعجازها • وتأمل الصياغة البشرية فى رداءتها وتفككها وسماجتها • تأمل الصياغة القرآنية فى قوة تأثيرها ، وقدرتها على التصوير •

وتأمل الصياغة البشرية فى هزالها وضعفها •

قال تعالى : ((**يوم يكون الناس كالفراش المبثوث ، وتكون الجبال كالعهن المنفوش(٢)**)) •

شبه القرآن الكريم الناس يوم القيامة بالفراش المبثوث فى ضعفهم وضالتهم وتهافتهم •

وشبه الجبال بالعهن « الصوف » المنفوش فى هشاشتها وخفتها •

مشهدان رائعان رسمتهما الريشة الالهية فأجادت وأعجزت ، وسحرت وأدهشت •

تأمل هذه الكلمة « الفراش » انها تصور لك بظلها وجرسها ، وايحائها الناس فى هذا اليوم فى منتهى الضعف والضالة ، وهم مستطارون مستخفون من هول هذا اليم •

وتأمل الدقة فى وصف الفراش بكونه مبثوثا ان هذا الوصف يصور لك كثرة الناس فى هذا اليوم وتهافتهم • ثم حدثنى بربك هل فى مفردات اللغة كلمة تصور هذا المشهد سوى هذه الكلمة القرآنية ؟

وهل هناك أعجب من هذه الدقة فى وصف الفراش بكونه مبثوثا ؟

ثم دقق نظرك فى كلمة « العهن » هل فى قواميس اللغة العربية كلمة أقدر على تصوير هذا المشهد من هذه الكلمة ؟ انها بجمالها وظلها وجرسها الساحر تصور لك الجبال الضخمة الثابتة بالصوف المنفوش الذى تتقاذفه الرياح الهوج • ثم تأمل بعقلك وخيالك الدقة والاحكام فى وصف العهن بكونه منفوشا ان هذا الوصف يصور لك الجبال الضخمة الثابتة فى منتهى الهشاشة والخفة •

---

(٢) القارعة : ٤ ـ ٥

انه النظم القرآنى يبهر العقول ، ويطير بالالباب ، ويذهب بسر البلاغة وسحر البيـــان ٠

قال تعــالى : ((**ان الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص(١)**)) ٠

شـــبه القرآن الكريم ما يجب أن يكون عليه المجاهدون فى سبيل الله من الالتحام والترابط الوثيق والاجتماع القوى بالبنيان المرصوص ٠

تشبيه عجيب انه يصور لك المجاهدين يشـــد بعضهم أزر بعض بالبنيان المرصوص فى قوة تماسكه وشـــدة ترابطه والتحامه ٠ أرأيت أعجب من هذا التصوير ؟

حدثنى بربك لو استبدلت كلمة ((البنيان المرصوص)) بكلمة ((حائط ، أو جدار)) هل تثير فى نفسك ما تثيره هذه الكلمة القرآنية من معنى الالتحام وقوة الاتصـــال ؟

أنها بلا شـــك أقدر على التصوير من أى كلمة أخرى ، ثم تأمل الدقة القرآنية فى وصف البنيان بكونه مرصوصا ٠ ان المعنى لا يتم بدونها(٢) ، وقوة التأثير لا تتحقق الا بهـــا ٠

انه النظم القرآنى فى تماسكه الفنى ، وترابطه القوى ، يسترق الاسماع ، ويثير فى النفس أسمى آيات الاعجاب ٠

قال تعــالى : ((**فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى الســماء(١)**)) ٠ ١

شـــبه القرآن الكريم الضيق الذى يشعر به المنافقون عندما يسمعون دعوة الحق بالضيق الذى يحس به من يصعد جبلا عاليـــا ٠

انه تشبيه فوق طاقة أساطين البيان وصناع الكلام ٠ انه يصور لك هؤلاء المنافقين عندما تقرع أسماعهم دعوة الحق فيضيقون بهـــا بمن يصعد جبلا عاليـــا ضخما شامخا فهو يجر نفسه ، ويلهث من التعب والعناء ٠

---

(١) الصف : ٤

(٢) أى كلمة ((مرصوص)) ٠

(١) الانعـــام : ١٢٥

تأمل بعقلك وخيالك وذوقك قوله « يصعد فى السماء » انه يصور لك فى دقة واحكام مدى ما يشعر به هذا الانسان من التعب الشديد والعناء المضنى المميت • قل لى بربك لو استبدلت كلمة « يصعد » بكلمة « يصعد » من غير تشديد ألا تحس أن التعب قد خف ، وأن العناء قد تضاءل ؟ •

ان هذه الكلمة القرآنية بظلها وجرسها وايحائها هى وحدها من بين مفردات اللغة العربية القادرة على تصوير هذا الضيق وابرازه فى صورة حية متحركة مشاهدة ملموسة تأمل الصياغة القرآنية وجمالها وقوة تأثيرها وقدرتها على التصوير • انها السر الخفى الذى لا يصل البشر الى معرفته مهما أوتوا من قوة البيان ، وبرعوا فى ميدان صناعة الكلام •

وهذا غيض من فيض مما يزخر به القرآن من نفائس البيان فى هذا الميدان •

من روائع الاستعارة فى القرآن الكريم

قال تعالى : ((**وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فاذا هم مظلمون(١)**)) •

استعير فى الآية الكريمة : ((السلخ)) وهو كشط الجلد عن الشاة ونحوها لازالة ضوء النهار عن الكون قليلا قليلا • بجامع ما يترتب على كل منهما من ظهور شىء كان خافيا ، فبكشط الجلد يظهر لحم الشاة ، وبغروب الشمس تظهر الظلمة التى هى الاصل والنور طارىء عليها ، يسترها بضوئه ، ثم اشتق من السلخ : ((نسلخ)) بمعنى ((نزيل)) •

وهذا التعبير الفنى يسميه علماء البلاغة ((الاستعارة التصريحية التبعية)) •

استعارة رائعة وجميلة • انها بنظمها الفريد وبايحائها وظلها وجرسها قد رسمت منظر بديعا للضوء وهو ينحسر عن الكون قليلا قليلا وللظلام وهو يدب اليه فى بطء •

انها قد خلعت على الضوء والظلام الحياة ، حتى لقد صارا كأنهما جيشان يقتتلان ، قد أنهزم أحدهما فولى هاربا ، وترك مكانه للاخر •

تأمل اللفظة المستعارة وهى ((نسلخ)) ان هذه الكلمة هى التى قد استقلت بالتصوير والتعبير داخل نظم الآية المعجز فهل يصلح مكانها غيرها ؟

قال تعالى : ((**والصبح اذا تنفس(٢)**))

استعير فى الآية الكريمة خروج النفس شيئا فشيئا لخروج النور من المشرق عند انشقاق الفجر قليلا قليلا بجامع التتابع على طريق التدريج ، ثم اشتق من التنفس بمعنى خروج النفس • تنفس بمعنى خرج النور من المشرق عند انشقاق الفجر •

استعارة قد بلغت من الحسن أقصاه ، وتربعت على عرش الجمال بنظمها الفريد • انها قد خلعت على الصبح الحياة حتى لقد صار كائنا حيا يتنفس ، بل انسانا ذا عواطف وخلجات نفسية ، تشرق الحياة باشراقة من ثغره المنفرج

---

(١) يس : ٣٧
(٢) التكوير : ١٨

عن ابتسامة وديعة ، وهو يتنفس بهدوء ، فتتنفس معه الحياة ، ويدب النشاط فى الاحياء على وجه الارض والسماء • أرأيت أعجب من هذا التصوير ، ولا أمتع من هذا التعبير ؟

ثم تأمل اللفظة المستعارة وهى « تنفس » انها بصوتها الجميل وظلها الظليل ، وجرسها الساحر قد رسمت هذه الصورة البديعة فى اطار نظم الآية المعجز • فهل هناك لفظ من ألفاظ اللغة العربية على كثرتها يؤدى ما أدته ، ويصور ما صورته ؟

قال تعالي : **« انا لما طغى الماء حملناكم فى الجارية(١) »** •

استعير فى الآية الكريمة « الطغيان » لاكثرة الماء بجامع الخروج عن حد الاعتدال والاستعلاء المفرط فى كل منهما •

ثم اشتق من الطغيان : « طغى » بمعنى كثر •

استعارة فريدة لا توجد فى غير القرآن انها تصور لك الماء اذا كثر وفار واضطرب بالطاغية الذى جاوز حده ، وأفرط فى استعلائه • أرأيت أعجب من هذا التصوير الذى يخلع على الماء صفات الانسان الآدمى ؟ ثم تأمل اللفظة المستعارة « طغى » انها بصوتها وظلها وجرسها ايحائها قد استقلت برسم هذه الصورة الساحرة فى اطار نظم الآية المعجز •

قال تعالى : **« فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين(٢) »** •

استعير فى الآية الكريمة : « الصدع » وهو كسر الزجاجة للتبليغ بجامع التأثير فى كل منهما أما فى التبليغ فلان المبلغ قد أثر فى الامور المبلغة ببيانها بحيث لا تعود الى حالتها الاولي من الخفاء ، وأما فى الكسر فلان فيه تأثير لا يعود المكسور معه الى الالتئام •

ثم اشتق من الصدع بمعنى التبليغ اصدع بمعنى بلغ •

استعارة رائعة وجميلة انها تبرز لك ما أمر به الرسول صلى الله عليه وسلم فى صورة مادة يشق بها ويصدع • انها تبرز لك المعنى المعقول فى

---

(١) الحاقة : ١١

(٢) الحجر : ٩٤

صورة حسية متحركة كأنك تراها بعينك وتلمسها بيدك • تأمل اللفظة المستعارة « اصدع » انها بصوتها وجرسها وايحائها قد استقلت برسم هذه الصورة الفـريدة المؤثرة اذ ان من يقرأها يخيل اليه أنه يسـمع حركة هذه المـادة المصدوعة تخيل لو استبدلت كلمة « اصدع » بكلمة « بلغ » ألا تحس أن عنصر التأثير قد تضاءل ، وأن الصورة الحية المتحركة قد اختفت وأن المعنى قد أصبح شاحبا باهتا ؟

ان اللفظة المستعارة هى التى رسمت هذه الصورة فى اطار نظم الآية المعجـز •

قال تعـالى : ((**وتركنا بعضهم يومئذ يموج فى بعض ونفخ فى الصور فجمعناهم جمعـا(١)**)) •

استعير فى الآية الكريمة الموج « حركة المـاء » للدفع الشديد بجامع سرعة الاضطراب وتتابعه فى الكثرة ثم اشتق من الموج بمعنى الدفع الشديد « يموج » بمعنى يدفع بشـدة •

ان هذه الاستعارة القرآنية الرائعة تصور للخيال هذا الجمع الحاشد من الناس احتشادا لا تدرك العين مداه حتى صار هذا الحشد الزاخر كبحر ترى العين منه ما تراه فى البحر الزاخر من حركة وتموج واضطراب • تأمل اللفظة المستعارة انها فى اطار نظم الآية المعجز قد استقلت برسم هذا المشـهد الفريد بصوتها وجرسها وايحائها •

قال تعالى : ((**آلر • كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النـور(٢)**)) •

استعير فى الآية الكريمة الظلمات للضلال بجامع عدم الاهتداء فى كل منهما ، ، واستعير النور للهدى بجامع الاهتداء فى كل منهما • وهذا المسـلك الأدبى يسميه علماء البلاغة « الاستعارة التصريحية الاصلية » •

هذه الاستعارة الفريدة تجعل الهدى والضلال يستحيلان نورا وظلمة • انها تبرز المعانى المعقولة الخفية فى صور محسوسة ، حية متحركة كأن العين تراها واليد تلمسها •

---

(١) الكهف : ١٠٠

(٢) ابراهيم : ١

تأمل كلمة « الظلمات » انها تصور لك بظلامها الضلال ليلا دامسا يطمس معالم الطريق أمام الضال فلا يهتدى الى الحق ثم تأمل الدقة القرآنية فى جمع « الظلمات » انه يصور لك الى أى مدى ينبهم الطريق أمام الضال فلا يهتدى الى الحق وسط هذا الظلام المتراكم ٠

ثم تأمل كلمة « النـور » انها بنورها تصور لك الهداية مصباحا منيرا ينير جوانب العقل والقلب ويوضح معالم الطريق أمام المهتدى فيصل فى سهولة ويسر الى الحق فينتفع به فيطمئن قلبه وتسكن نفسه ويحظى بالسعادة فى دنيـاه وأخراه ٠

قال تعالى : **((وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير ، اذا ألقوا فيها سمعوا لهـا شهيقا وهى تفور ، تكاد تميز من الغيظ(١)))** ٠

فى هذه الآية الكريمة شبهت جهنم بشخصية آدمية ثائرة غاضبة محنقة ثم حذف المشبه به ورمز اليه بشىء من لوازمه وهو « الغيظ » وهذا الصنيع الأدبى يسميه علماء البلاغة « الاستعارة المكنية » ٠

ان هذه الاستعارة لا يمكن لانسان مهما أوتى من قوة البيان أن يصور ما فيها من الحسن والجمال انها بنظمها الفريد وصفت النـار بصفة المغيظ الغضبان ، الذى من شـأنه أن يبالغ فى الانتقام ويتجاوز الغايات فى الايقاع والايلام ، انها خلعت على النار الحياة ، وأبرزتها فى صورة آدمية لهـا انفعالات وجدانية ، وخلجات عاطفية فهى تشهق شهيق الباكين ، وتغضب وتثور ، وهى ذات نفس حادة الشـعور(٢) ٠

قال تعـالى : **((ولمـا سكت عن موسى الغضب(٣)))** ٠

فى هذه الآية الكريمة شبه الغضب بالانسان الثائر الغاضب ثم حذف المشبه به ورمز اليه بشىء من لوازمه وهو « السكوت » ان هذه الاستعارة الفريدة فوق مقدور البشر ٠ ان نظمها تنبعث منه لطائف وأنوار لا يدركها الا من تذوق حلاوة القرآن ٠ انها تجسم الغضب ، وتلبسه ثوب الانسان الآدمى وتخلع عليه أوصافه ، انها تصوره وكأنه انسان يدفع موسى ويحثه على الانفعال والثورة ، ثم سكت وكف عن دفعه وتحريضه ٠

---

(١) الملك : ٦ ـ ٨
(٢) مجازات القرآن ص ٣٣٩
(٣) الاعراف : ١٥٤

قال تعـالى : ((**ثم استوى الى السماء وهى دخان فقال لها وللارض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين(١)**)) •

شبهت فى الآية الكريمة كل من الأرض والسـماء بالانسان المستجيب لنداء ربه المسارع الى تنفيذ أوامره ونواهيه ثم حذف المشبه به ورمز اليه بشىء من لوازمه وهو « القول » وهذا التعبير الفنى يسميه علماء البلاغة « الاستعارة المكنية » •

ان هذه الاستعارة الساحرة تخلع على الارض والسماء الحياة وتلبسهما صورة الآدمى وتمنحهما أوصافه من الارادة والطاعة والاستجابة والمسارعة الى مرضاة الله بتنفيذ الاوامر ما أعجب هذا التصوير وما ألذه وأمتعه • انك حين تقرأ الآية فى تدبر يخيل اليك أن الارض والسماء انسانان يقفان فى خشوع وخضوع وأن مولاهما يأمرهما فيطيعان ويدعوهما فيستجيبان • قل لى بربك هل هناك أعجب من هذا التصوير الذى ينطق الجماد ويبعث فيه الحياة ويحوله انسانا قانتا طائعا متبتلا ؟ •

قال تعـالى : ((**وقذف فى قلوبهم الرعب(٢)**)) شـبه الرعب فى الآية الكريمة بأده صلبة ثقيلة سريعة ثم حذف المشبه به ، ورمز اليه بشىء من لوازمه وهو « القذف » •

انظر الى هذه الاستعارة الفريدة انها تصور لك الرعب وكأنه قذيفة تنفـذ فى القلوب لفورها تصوير رائع جميل يبرز لك المعانى النفسية الخفية فى صور محسوسة حية متحركة كأنك تراها وتلمسها • تأمل كلمة « قذف » انها توحى بالقوة ، ثم تأمل اسناد هذه الكلمة الى « الرعب » ومدى ما يحدثه هذا الاسناد من التجسيم الذى يثير فى النفس أقصى درجات الخوف والانزعاج انه النظم القرآنى يصور فيبدع ، ويعبر فيعجز •

قال تعـالى : ((**ربنا أفرغ علينا صبرا(٣)**)) شبه الصبر فى الآية الكريمة بالسائل ثم حذف المشبه به ورمز اليه بشىء من لوازمه وهو « أفرغ » وهذا الصنيع الادبى يسميه علماء البلاغة « الاستعارة المكنية » ان هذه الاستعارة الفريدة تجعل الصبر يستحيل سائلا يفرغ على الجسم فيهدأ وتحس به النفس فتسكن ويشعر به القلب فيطمئن • انها تبرز لك هذا المعنى النفسى الخفى فى صورة حسية مشاهدة ملموسة ثم تأمل الدقة القرآنية فى اختيار كلمة « أفرغ »

---

(١) فصـلت : ١١
(٢) الحشر : ٢
(٣) البقـرة : ٢٥٠

انها توحى باللين والرفق الذى يتطلبه المقام وتتشوف اليه نفوس هؤلاء الداعين ، ثم تأمل ما يحدثه ايقاع هذه الكلمة على الصبر من التجسيم الذى يبعث فى النفس أقصى درجات الاطمئنان والسكون والهدوء ٠

قال تعـالى : ((**فصب عليهم ربك سـوط عذاب(١)**)) ٠

شـبه فى الآية الكريمة العذاب الشديد بالسائل الذى يصب فى شدة وقوة ثم حذف المشبه به ورمز اليه بشىء من لوازمه وهو « الصب » وهذا الصنيع الأدبى يسميه علماء البلاغة « الاستعارة المكنية » ٠

ان هذه الاستعارة تجعل العذاب الشديد يستحيل سائلا يصب فى شدة وقوة فتضطرب له الأجسام وتنزعج من صبه النفوس وتنخلع لقوته القلوب ٠

تصوير عجيب يبرز لك هذا المعنى النفسى فى صورة حية متحركة ملموسة مشاهدة مؤثرة ٠

ثم انظر الدقة فى استعمال كلمة الصب هنا انها توحى بالشدة والقوة معا وهذا الايحاء يتلاءم مع هذا المقام مقام التعذيب ٠ وتأمل ما يحدثه ايقاع هذا الصب على العذاب الشديد فى الآية الكريمة انه يثير فى النفس أقصى درجات الاحساس والشعور بالتعذيب ٠

قال تعـالى : ((**وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية(٢)**)) ٠

شبهت الريح فى الآية الكريمة بالانسان الجبار المتكبر العنيف ٠ ثم حذف المشبه به ورمز اليه بشىء من لوازمه وهو « العتو » وهذا المسلك الأدبى يسميه علماء البلاغة « الاستعارة المكنية » ان هذه الاستعارة الفريدة تخلع على الريح الحياة وتبرزها لك فى صورة الانسان الجبار المتكبر المفرط فى العنف والاستعلاء ٠ ما أعجب هذا التصوير القرآنى الذى يجعل الريح تستحيل انسانا بلفظة واحدة ٠ ان هذه اللفظة وهى « عاتية » دقق نظرك فيها انها توحى بالعنف والجبروت ثم تأمل الدقة القرآنية فى اسناد هذه اللفظة الى ضمير الريح ان هذا الاسناد هو الذى خلع عليها الحياة ومنحها صفات الانسان العنيف ٠ حدثنى بربك هل هناك أعجب من هذا التصوير الذى يلبس الريح شخصية الآدمى الشرير المجاوز الحد فى العنف والجبروت ؟

---

(١) الفجـر : ١٣
(٢) الحـاقة : ٦

ثم دقق نظرك فى مدى ما يحدثه هذا التصوير من التأثير فى النفس والقلب معا ان النفس لتذوب من هول هذا التصوير وان القلب ليكاد ينخلع من شدته •

قال تعالى : « **أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا ان نصر الله قريب** »(١) •

استعير فى الآية الكريمة « الزلزال » للاضطراب الشديد بجامع التأثير الشديد فى كل منهما • ثم اشتق من الزلزال • زلزلوا • بمعنى اضطربوا اضطرابا شديدا وهذا التعبير الفنى يسميه علماء البلاغة « الاستعارة التصريحية التبعية » •

ان هذه الاستعارة القرآنية الفريدة قد صورت الاضطراب الشديد ذلك المعنى النفسى الخفى بصورة الزلزال العنيف المدمر فأبرزته فى صورة حسية متحركة ملموسة مشاهدة تنخلع لهولها القلوب ، وتذهب من شدتها العقول ، وتزوغ من قوتها الابصار •

ان هذه الصورة العجيبة البالغة التأثير قد استقلت برسمها كلمة واحدة هى اللفظة المستعارة « زلزلوا » ان هذه الكلمة بصوتها وجرسها وايمائها هى التى جسمت هذا المعنى الخفى وأبرزته فى تلك الصورة •

ان أى لفظة أخرى لا تسد مسدها ولا تقوم مقامها فى تحقيق المعنى المطلوب وتصوير الحالة المرجوة •

قال تعالى : « **والشعراء يتبعهم الغاوون ، ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون** »(٢) •

أستعير فى الآية الكريمة « الأودية » الموضوعة أصلا للدلالة على المنخفض بين مرتفعين للاغراض الشعرية التى يلخصها الشعراء بأفئدتهم ، ويصوغونها بأفكارهم • وهذا التعبير الفنى يسميه علماء البلاغة « الاستعارة التصريحية الاصلية » •

ان هذه الاستعارة الفريدة تجسم لك تلك المعانى الفكرية المجردة

---

(١) البقرة : ٢١٤
(٢) النمل : ٢٢٤ ، ٢٢٥

وتبرزها فى صورة محسوسة مشاهدة ملموسة ، ثم تحـولها الى أودية سحيقة ، فهى لا تقف عند حد التجسيم والتشخيص ، بل تتعداه الى التصيير والتحويل · وهذا مما انفردت به الاستعارة فى القرآن الكريم ·

تأمل اللفظة المستعارة « الأودية » انها وحدها قد استقلت برسم هذه الصورة العجيبة فى اطار نظم الآية المعجز · لقد اختارها القــرآن دون سواها لمـا بين الفكر والوادى من تناسب فى العمق والبعد والخفاء والغموض

من روائع الكناية فى القرآن الكريم

قال تعالى : « نساؤكم حرث لكم(١) » لقد كنى القرآن الكريم فى هذه الآية بكلمة « الحرث » عن المعاشرة الزوجية ٠

ان هذه الكناية الفريدة مما انفرد به القرآن الكريم فهى لطيفة دقيقة راسمة مصورة ، مؤدبة مهذبة ، فيها من روعة التعبير وجمال التصوير ، وألوان الادب والتهذيب ما لا يستقل به بيان ، ولا يدركه الا من تذوق حلاوة القرآن ٠ انها عبرت عن المعاشرة الزوجية التى من شأنها أن تتم فى السر والخفاء بالحرث وهذا نوع من الادب رفيع لا يوجد فى غير القرآن ، وهذا اللفظ فضلا عما فيه من الادب وثيق الصلة بالمعاشرة الزوجية ، وتنطوى تحته معان كثيرة تحتاج فى التعبير عنها الى آلاف الكلمات انظر الى ذلك التشابه بين صلة الزارع بحرثه وصلة الزوج بزوجه فى هذا المجال الخاص، وبين ذلك النبت الذى يخرجه الحرث ، وذلك النبت الذى تخرجه الزوج ، وما فى كليهما من تكثير وعمران وفلاح كل هذه الصور والمعانى تنطوى تحت كلمة « الحرث » أليست هذه الكلمة معجزة بنظمها وتصويرها ؟ هل فى مفردات اللغة العربية ـ على كثرتها ـ ما يقوم مقامها ويؤدى ما أدته ويصور ما صورته ؟ ان المعنى لا يتحقق الا بها ٠ وان التصوير لا يوجد بسواها(٢) ٠

قال تعالى : ((**فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة**))(٣) ٠

هذه الآية كناية عن عدم العناد عند ظهور المعجزة ٠ أى لا تعاندوا عند ظهور المعجزة فتمسكم هذه النار العظيمة تأمل هذه الكناية ومدى ما فيها من جمال التعبير ، وروعة التصوير ، ولطافة الايجاز ٠ انها عبرت عن العناد عند ظهور المعجزة بالنار العظيمة ، وهذا التعبير فيه ما فيه من شدة التنفير وقوة التأثير ، ثم ان هذا التعبير قد أبرز لك هذا االمعنى الفكرى المجرد فى صورة محسوسة ملموسة ولم يقف عند هذا الحد من التجسيم والتشخيص بل تعداه الى التصيير والتحويل ٠ فحوله الى نار ملتهبة متأججة متوهجة ٠ أرأيت أعجب من هذا التصوير ، ولا أروع وألذ من هذا التعبير ؟ انه الاعجاز يلبس ثوب الكناية فتنحنى له هامات البلغاء ، ويثير فى النفس أسمى آيات الاعجاب ٠

---

(١) البقرة : ٢٢٣
(٢) التصوير الفنى فى القرآن ص ٧٨
(٣) البقرة : ٢٤

قال تعالى « **ولكن لا تواعدوهن سرا(١)** » في هذه الآية كنى القرآن الكريم عن الجماع بالسر • تأمل هذه الكناية ومدى ما فيها من اللطائف والانوار والأسرار • ان فى الكناية بالسر عن الجماع من ألوان الادب والتهذيب ما يعجز عن وصفه أساطين البيان ، وفيها من جمال التعبير ما يسترق الاسماع ويهز العواطف ويحرك الأحاسيس والمشاعر • لقد ألبست الجماع الذى يتم فى السر ثوب السر فذهبت بسر الفصاحة والبيان • أبعد هذا يقال ان الكناية فى القرآن يستطيع أن يحاكيها بنو الانسان ؟ أبدا والله ان بنى الانسان من العجز بحيث لا يمكنهم فهم ما تنطوى عليه الكناية فى القرآن من الاسرار •

قال تعالى : « **ان الذين كفروا بعد ايمانهم ثم ازدادوا كفرا لن تقبل توبتهم** »(٢) •

كنى القرآن الكريم فى هذه الآية بنفى قبول التوبة عن الموت على الكفر • تأمل هذه الكناية ومدى ما فيها من الجمال والروعة • ألا تحس أن التعبير الذى كنى به القرآن أجمل من أى تعبير آخر ؟ ألا تحس أن فى هذا التعبير ايجاز لطيف ؟ • ان هذا التعبير بجماله وايجازه وبديع نظمه فوق مقدور البشر •

قال تعالى : « **فجعلهم كعصف مأكول** »(٣) كنى القرآن الكريم « بالعصف المأكول » عن مصيرهم الى العذرة فان الورق اذا أكل انتهى حاله الى ذلك • تأمل هذه الكناية ان فيها من ألوان الادب والجمال ما لا يستقل به بيان ، وفيها من الايجاز اللطيف ما يعجز عن وصفه مهرة صناع الكلام • أما الادب والجمال ففى التعبير عن العذرة بالعصف المأكول وهذا التعبير مما انفرد به القرآن فلا يوجد فى غيره ، وأما الايجاز اللطيف ففى اختصار مقدمات لا أهمية لها بالتنبيه على النتيجة الحاسمة التى يتقرر فيها المصير • وفيها زيادة على ذلك التلازم الوثيق بين اللفظ والمعنى الكنائى الذى لا يتخلف أبدا فان العصف المأكول لابد من صيرورته الى العذرة •

فالمعنى لا يؤدى الا بهذا اللفظ ، واللفظ لا يصلح الا لهذا المعنى حتى لتكاد تصعب التفرقة بينهما فلا يدرى أيهما التابع ؟ وأيهما المتبوع ؟ ومن هنا يأتى الاعجاز •

قال تعالى : « **ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ، ولا تبسطها كل البسط**

---

(١) البقرة : ٢٣٥
(٢) آل عمران : ٩٠
(٣) الفيل : ٥

فتقعد ملوما محسورا))(١) كنى القرآن الكريم فى هذه الآية بغل اليد الى العنق عن البخل ، وببسطها كل البسط عن الاسراف • تأمل الكنايتين تجد فيهما من روائع البيان ما لا يحيط به فكر انسان فيهما جمال فى التعبير ، وروعة فى التصوير ، وايجاز وتأثير ، وتنفير • حدثنى بربك ألا ترى أن التعبير عن البخل باليد المغلولة الى العنق فيه تصوير محسوس لهذه الخلة المذمومة فى صورة بغيضة منفرة ؟ فهذه اليد التى غلت الى العنق لا تستطيع أن تمتد ، وهو بذلك يرسم صورة البخيل الذى لا تستطيع يده أن تمتد بانفاق ولا عطية • والتعبير ببسطها كل البسط يصور هذا المبذر لا يبقى من ماله على شيىء كهذا الذى يبسط يده فلا يبقى بها شيىء • وهكذا استطاعت الكناية أن تنقل المعنى قويا مؤثرا(٢) ثم تأمل التلازم الوثيق الذى لا يتخلف أبدا بين التعبير والمعنى الكنائى • ان هذا التلازم يدلك على أن المعنى الكنائى لا يمكن تأديته وتصويره الا بهذا التعبير ، وأن هذا التعبير لا يصلح الا لهذا المعنى • هل فى مقدور البشر أن يحاكوا هذا الاسلوب ؟

---

(١) الاسراء : ٢٩

(٢) من بلاغة القرآن ص ٢٢٦

الفصـل الخامس

الاعجاز فى نغم القـرآن

انك اذا قرأت القرآن قراءة سليمة ، وتلوته تلاوة صحيحة ٠ أدركت أنه يمتاز بأسلوب ٠ ايقاعى ينبعث منه نغم جميل ساحر يبهر الألباب ، ويسترق الاسماع ، ويسيل الدموع من العيون ٠ ويستولى على الاحاسيس والمشاعر ٠ وان هذا النغم يبرز بروزا واضحا فى السور القصار والفواصل السريعة ، ومواضع التصوير والتشخيص بصفة عامة ، ويتوارى قليلا أو كثيرا فى السور الطوال ولكنه ـ على كل حال ـ ملحوظ دائما فى بناء النظم القرآنى ٠ وانه تنوع تنوع موسيقى الوجود فى أنغامه وألحانه ٠ ولعلنا لا نخطىء ان رددنا سحر هذا النغم الى نسق القرآن الذى يجمع بين مزايا النثر والشعر جميعا يقول المرحوم الأستاذ سيد قطب : « على أن النسق القرآنى قد جمع بين مزايا الشعر والنثر جميعا ٠ فقد أعفى التعبير من قيود القافية الموحدة والتفعيلات التامة ، فنال بذلك حرية التعبير الكاملة عن جميع أغراضه العامة ٠ وأخذ فى الوقت ذاته من خصائص الشعر الموسيقى الداخلية ، والفواصل المتقاربة فى الوزن التى تغنى عن التفاعيل ، والتقفية التى تغنى عن القوافى ٠ وضم ذلك الى الخصائص التى ذكرنا فشأى النثر والنظم جميعا »(١) ٠

اقرأ معى الآيات الأولى من سورة النجم :

بسم الله الرحمن الرحيم : ((والنجم اذا هوى ، ما ضل صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى ، ان هو الا وحى يوحى ، علمه شديد القوى ، ذو مرة فاستوى ، وهو بالأفق الاعلى ، ثم دنا فتدلى ، فكان قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى الى عبده ما أوحى ، ما كذب الفؤاد ما رأى ، أفتمارونه على ما يرى)) ؟ ولقد رآه نزلة أخرى ، عند سدرة المنتهى ، عندها جنة المأوى ، اذ يغشى السدرة ما يغشى ، ما زاغ البصر وما طغى ، لقد رأى من آيات ربه الكبرى ، أفرأيتم اللات والعزى ، ومناة الثالثة الاخرى ؟ ألكم الذكر وله الانثى ؟ تلك اذن قسمة ضيزى))(٢) ٠

تأمل الآيات تجد فواصل متساوية فى الوزن تقريبا ـ على نظام غير نظام الشعر العربى ـ متحدة فى حرف التقفية تماما ، ذات ايقاع موسيقى

---

(١) التصوير الفنى فى القرآن ص ٨٦

(٢) النجم : من ١ ـ ٢٢

متحد تبعا لهذا وذاك ، وتبعا لأمر آخر لا يظهر ظهور الوزن والقافية ، لانه ينبعث من تالف الحروف فى الكلمات ، وتناسق الكلمات فى الجمل ، ومرده الى الحس الداخلى ، والادراك الموسيقى ، الذى يفرق بين ايقاع موسيقى وايقاع ، ولو اتحدت الفواصل والأوزان ٠

والايقاع الموسيقى هنا متوسط الزمن تبعا لتوسط الجملة الموسيقية فى الطول متحد تبعا لتوحد الاسلوب الموسيقى ، مسترسل الروى كجو الحديث الذى يشبه التسلسل القصصى ٠ وهذا كله ملحوظ ٠ وفى بعض الفواصل يبدو ذلك جليا مثل : « أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الاخرى ؟ » فلو أنك قلت : أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة لاختلت القافية ، ولتأثر الايقاع ٠ ولو قلت : أفرأيتم اللات والعزى ومناة الاخرى ، لاختل الوزن ٠ وكذلك فى قوله تعالى : « ألكم الذكر وله الأنثى ؟ تلك - اذن - قسمة ضيزى » فلو قلت : ألكم الذكر وله الانثى تلك قسمة ضيزى ، لاختل الايقاع المستقيم بكلمة اذن ٠

ولا يعنى هذا أن كلمة « الأخرى » أو كلمة « الثالثة » أو كلمة « اذن » زائدة لمجرد القافية أو الوزن ، فهى ضرورية فى السياق لنكت معنوية خاصة ، وتلك ميزة فنية أخرى أن تأتى اللفظة لتؤدى معنى فى السياق ، وتؤدى تناسبا فى الايقاع ، دون أن يطغى هذا على ذلك ، أو يخضع النظم للضرورات(١) ٠

ونلاحظ فى النص القرآنى أن اتزان الايقاع فى الآيات والفواصل يبدو واضحا فى كل موضع ٠ ودليل ذلك أن يعدل فى التعبير عن الصورة القياسية للكلمة الى صورة خاصة أن أن يبنى النسق على نحو يختل اذا قدمت أو أخرت فيه ٠ أو عدلت فى النظم أى تعديل ٠

وان هذا النغم القرآنى ليبدو فى قمة السحر والتأثير فى مقام الدعاء ٠ اذ الدعاء - بطبيعته - ضرب من النشيد الصاعد الى الله ، فلا يحلو وقعه فى نفس الضارع المبتهل الا اذا كانت ألفاظه جميلة منتقاة وجمله متناسقة متعانقة، وفواصله متساوية ذات ايقاع موسيقى متزن ، والقرآن الكريم لم ينطق عن لسان النبيين والصديقين والصالحين الا بأحلى الدعاء نغما ، وأروعه سحر بيان ، ان النغم الصاعد من القرآن خلال الدعاء يثير بكل لفظة صورة ، وينشىء فى كل لحن مرتعا للخيال فسيحا : فنتصور مثلا - ونحن نرتل دعاء زكريا عليه السلام - شيخا جليلا مهيبا على كل لفظة ينطق بها مسحة من رهبة ، وشعاع من نور ، ونتمثل هذا الشيخ الجليل - على وقاره - متأجج

---

(١) التصوير الفنى فى القرآن ص ٨٨

العاطفة ، متهدج الصوت ، طويل النفس ، ما تبرح أصداء كلماته تتجاوب فى أعماق شديدة التأثير · بل ان زكريا فى دعائه ليحرك القلوب المتحجرة بتعبيره الصادق عن حزنه وأساه خوفا من انقطاع عقبه ، وهو قائم يصلى فى المحراب لاينى ينادى اسم « ربه » نداء خفيا ، ويكرر اسم « ربه » بكرة وعشيا ، ويقول فى لوعة الانسان المحروم وفى ايمان الصديق الصفى : **((رب انى وهن العظم منى ، واشتعل الرأس شيبا ، ولم أكن بدعائك ـ رب ـ شقيا ، وانى خفت الموالى من ورائى ، وكانت امرأتى عاقرا ، فهب لى من لدنك وليا · يرثنى ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا))**(١) وان البيان لا يرقى هنا الى وصف العذوبة التى تنتهى فى فاصلة كل آية بيائها المشددة وتنوينها المحول عند الوقف ألفا لينة كأنها فى الشعر ألف الاطلاق : فهذه الالف اللينة الرخية المنسابة تناسقت بها « شقيا ـ وليا ـ رضيا » مع عبد الله زكريا ينادى ربه نداء خفيا(٢) ولقد استشعرنا هذا الجو الغنائى ونحن نتصور نبيا يبتهل وحده فى خلوة مع الله ، وكدنا نصغى الى ألحانه الخفية تتصاعد فى السماء ، فكيف بنا لو تصورنا جماعة من الصديقين الصالحين وهم يشتركون : ذكرانا واناثا ، شبانا وشيبا ، بأصوات رخية متناسقة تصعد معا وتهبط معا وهى تجأد الى الله ، وتنشد هذا النشيد الفخم الجليل : **((ربنا ما خلقت هذا باطلا ، سبحانك فقنا عذاب النار ، ربنا انك من تدخل النار فقد أخزيته ، وما للظالمين من أنصار ، ربنا اننا سمعنا مناديا ينادى للايمان أن آمنوا بربكم فآمنا · ربنا فاغفر لنا ذنوبنا ، وكفر عنا سيائتنا ، وتوفنا مع الأبرار · ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة انك لا تخلف الميعاد))(٣) ·**

ان فى تكرار عبارة « ربنا » لما يلين القلب ، ويبعث فيه نداوة الايمان ، وان فى الوقوف بالسكون على الراء المذلقة المسبوقة بهذه الألف اللينة لما يعين على الترخيم والترنيم ، ويعوض فى الاسماع أحلى ضربات الوتر على أعذب العيدان ·

ولئن كان فى موقفى الدعاءين هذين نداوة ولين ، ففى بعض مواقف الدعاء القرآنية الأخرى صخب رهيب : ها هو ذا نوح عليه السلام يدأب ليلا ونهارا على دعوة قومه الى الحق ، ويصر على نصحهم سرا وعلانية ، وهم يلجون فى كفرهم وعنادهم ، ويفرون من الهدى فرارا ، ولا يزدادون الا ضلالا واستكبارا ، فما على نوح ـ وقد أيس منهم ـ الا أن يتملكه الغيظ ويمتلىء فوه بكلمات الدعاء الثائرة الغضبى تنطلق فى الوجوه مديدة مجلجلة ، بموسيقاها الرهيبة ،

---

(١) مريم : من ٤ ـ ٦

(٢) مباحث فى علوم القرآن للدكتور صبحى الصالح ص ٣٣٨

(٣) آل عمران : ١٩١ ـ ١٩٤

وايقاعها العنيف ، وما أظنك تتخيل الجبال الا دكا ، والسماء الا متجهمة عابسة ، والأرض الا مهتزة مزلزلة ، والبحار الا هائجة ثائرة ، حين دعا نوح على قومه بالهلاك والتبار فقال : ((**رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ، انك ان تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا الا فاجرا كفارا • رب اغفرلى ولوالدى ولمن دخل بيتى مؤمنا ، وللمؤمنين والمؤمنات ، ولا تزد الظالمين الا تبارا**))(١) •

أما الحناجر الكظيمة المكبوتة التى يتركها القرآن فى بعض مشاهده تطلق أصواتها الحبيسة ـ بكل كربها وضيقها وبحتها وحشرجتها ـ فهى حناجر الكافرين النادمين يوم الحساب العسير ، فيتحسرون ويحاولون التنفيس عن كربهم ببعض الاصوات المتقطعة المتهدجة ، كأنهم بها يتخففون من أثقال تنقض ظهورهم ، ويفرغون عن طريقها ما يعانون من عذاب أليم : واذا هم يوم الدين يدعون ربهم دعاء التائبين النادمين ويقولون : ((**ربنا انا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا • ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا**(٢))) •

وان هذه الموسيقى الداخلية لتنبعث فى القرآن حتى من اللفظة المفردة فى كل آية من آياته ، فتكاد تستقل ـ بجرسها ونغمها ـ بتصوير لوحة كاملة فيها اللون زاهيا أو شاحبا ، وفيها الظل شفيفا أو كثيفا • أرأيت لونا أزهى من نضرة الوجوه السعيدة الناظرة الى الله ، ولونا أشد تجهما من سواد الوجوه الشقيقة الكالحة الباسرة فى قوله تعالى : ((**وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة ، ووجوه يومئذ باسرة تظن أن يفعل بها فاقرة**))(١) لقد استقلت فى لوحة السعداء لفظة « ناضرة » بتصوير أزهى لون وأبهاه ، كما استقلت فى لوحة الاشقياء لفظة « باسرة » برسم أمقت لون وأنكاه •

وحين تتسمع همس السين المكررة تكاد تستشف نعومة ظلها مثلما تستريح الى خفة وقعها فى قوله تعالى : ((**فلا أقسم بالخنس الجوار الكنس • والليل اذا عسعس والصبح اذا تنفس**))(٢) بينما تقع الرهبة فى صدرك وأنت تسمع لاهثا مكروبا صوت الدال المنذرة المتوعدة مسبوقة بالياء المشبعة المديدة فى لفظة « تحيد » بدلا من « تنحرف » فى قوله تعالى : ((**وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد**))(٣) •

وتقرأ قوله تعالى : ((فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز))(٤) •

---

(١) الآيات الاخيرة من سورة نوح •
(٢) الاحزاب : ٦٧ ـ ٦٨
(١) القيامة : ٢٢ ـ ٢٥
(٢) التكوير : ١٥ ـ ١٨
(٣) ق : ١٩
(٤) آل عمران : ١٨٥

فلا ترى فى المعجم غير كلمة « زحزح » تصور مشهد الابعاد والتنحية بكل ما يقع فى هذا المشهد من أصوات ، وما يصاحبه من ذكر الذى يمر بحسيس النار ويسمعه ويكاد يصلاه • وليأخذنك من الغيظ مثل ما يأخذ جهنم حين تتسمع لفظ « تميز » من قوله تعـالى : **((تكاد تميز من الغيظ(٥)))** •

وليستولين عليك القلق وأنت تكرر هاء السكت فى أكثر فواصل سورة الحاقة ، فتنسى وأنت تتلو قوله تعالى : **((ما أغنى عنى ماليه • هلك عنى سلطانيه))(٦)** أن الذى هلك سلطانه من أوتى كتـابه بشـماله ، لا أنت ولا سلطانك ، فتظل من الآيات فى قلق شديد •

وما أحسب شفتيك الا منقبضتين استقباحا واستهجانا لحال الـكافر الذى يتجرع صديده ولا يكاد يسيغه فى قوله تعالى : **((ويسقى من ماء صديد • يتجرعه ولا يكاد يسيغه(٧)))** فتستشعر فى لفظ « التجرع » ثقلا وبطءا يدعوان الى التقزز والكراهية •

ولا أحسبك الا مستشعرا عنف لفظ الكبكبة • فى قـولـه تعـالى : **((فكبكبوا فيها هم والغاوون))(١)** حتى لتكاد تتصور أولئك المجرمين يكبون على وجوههم أو على مناخرهم ويلقون القاء المهملين ، فلا يقيم أحـد لهم وزنا •

وهكذا تتبدى تلك الموسيقى الداخلية فى بناء التعبير القرآنى موزونة بميزان شديد الحساسية تميله أخف الحركات والاهتزازات ، ولو لم يكن شعرا أو لو لم يتقيد بقيود الشعر الكثيرة التى تحد من الحرية الكاملة فى التعبير الدقيق عن القصد المطلوب •

فليست الفاصلة فيه كقافية الشعر تقاس بالتفعيلات والأوزان ، وتضبط بالحركات والسكنات ولا النظم فيه يعتمد على الحشو والتطويل ، أو الزيادة والتكرار ، أو الحذف والنقصان ، ولا الألفاظ تحشد حشدا ، وتلصق الصاقا ، ويلتمس فيها الابهام والاغراب ، بل الفاصلة طليقة من كل قيد ، والنظم بنجوة من كل صنعة ، والألفاظ بمعزل عن كل تعقيد : ان هو الا الا أسلوب يؤدى غرضه كاملا غير منقوص ، يلين أو يشتد ، ويهدأ أو يهيج ، ينساب انسيابا كالمـاء اذ يسقى الغراس ، أو يعصف عصفا كأنه صرصر عاتية تبهر الانفاس -

---

(٥) الملك : ٨

(٦) الحـاقة : ٢٩

(٧) ابراهيم : ١٧

(١) الشعراء : ٩٤

خاتمـــة

لقد حاولت ـ قدر استطاعتى ـ أن ألم أطراف هذا الموضوع المتشعب ألا وهو الوقوف على سر اعجاز القرآن العظيم ، وقد توصلت فى النهاية الى أن اعجازه انما يكمن فى نسقه الذى يجمع بين مزايا الشعر والنثر ، بموسيقاه الداخلية ، وفواصله المتقاربة فى الوزن التى تغنى عن التفاعيل ، وتقفيته التى تغنى عن القوافى ، وتصويره العجيب الذى يبث الحركة والحيـاة فى المشاهد ، ويبرز المعانى المجردة فى صور محسوسة مشاهدة ملموسة ، ويخـلع الحياة على الجمادات فيخيل للسامع أنها كائنات حية لها أحاسيس ومشاعر ، وخلجات وعواطف ٠ ذلك هو القرآن : ان نطق لم ينطق الا بالحق ، وان علم لم يعلم الا الهدى والارشاد ، وان صور لم يصور الا أجمل لوحات الحياة ، وان رتل ترتيلا لم يسمع بعده لحن فى الوجود ٠

ذلك كتاب الله المجيد « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » ٠

والآن وقد انتهيت من هذه السياحة العجلى فى رحاب القرآن الكريم ٠ أحب أن أقرر أنه لا يستطيع أن يدرك الاعجاز فى نظم القرآن ، الا من وفق لاكتساب عدة أمور هى :

١ ـ ذهن صاف ، وقلب سليم من الأمراض ، يقى من الآفات ، مماوء بحب الله وحب رسوله صلى الله عليه وسلم ٠

٢ ـ احاطة تامة بعلم التجويد تمكنه من تلاوة كتاب الله تلاوة صـحيحة سـليمة ٠

٣ ـ حفظ كتاب الله عز وجل ، والمداومة على تلاوته فى تدبر وتأمل وخشوع ٠

٤ ـ ذوق رقيق ، وطبع سليم ، وطول معاشرة لأساليب اللغة العربيـــة شعرا ونثرا ٠

٥ ـ بصيرة نافذة حكيمة ، وحس مرهف يدرك ما احتجب من الأسرار خلف الأستار وفى ختام هذه الخاتمة أضع هذا الجهد المتواضع بين يدى القارىء الكريم مرحبا بكل نقد يهدف الى الوصول الى الحقيقة ٠

والله الكريم أسأل أن يرزقنا الاخلاص وأن يهيىء لنا أسباب المعرفة ، وأن يفتح علينا فتوح العارفين ، وأن يفيض علينا من علمه ، وأن يمدنا بمدد من عنده ، وأن يشفى قلوبنا من الأمراض ، وأن ينقيها من جميع الاقذار وان يكفينا شر خلقه ، انه سميع مجيب ، وهو حسبى ونعم الوكيل ، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ٠

الدكتور
محمود السيد شيخون
الأستاذ المساعد فى الجامعة
الاسلامية بالمدينة المنورة

مصـادر البحث

١ ـ القـرآن الـكريم ٠

٢ ـ الاتقان فى علوم القرآن ٠

٣ ـ الاشارة الى الايجاز فى بعض أنواع المجاز ٠ لعز الدين بن عبد السـلام ط ٠ الأستانة سنة ١٣١٣ هـ ٠

٤ ـ اعجاز القرآن ٠ للباقلانى ط ٠ دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٢ م ٠

٥ ـ اعجاز القرآن والبلاغة النبوية ٠ لمصطفى صادق الرافعى ط ٠ مصر سـنة ١٩٢٦ م ٠

٦ ـ الانتصار ٠ لابن الخياط المعتزلى ٠ نشرة « نيبرج » ٠

٧ ـ البداية والنهاية ٠ لابن كثير ط ٠ مطبعة السعادة سنة ١٣٥١ هـ ٠

٨ ـ بديع القرآن ٠ لابن أبى الاصبع المصرى تحقيق الدكتور حفنى شرف ط ٠ مصر سنة ١٩٥٧ م ٠

٩ ـ البرهان فى علوم القرآن ٠ للزركشى ط ٠ الحلبى بمصر سنة ١٩٥٨ م ٠

١٠ ـ بيان اعجاز القرآن ٠ للخطابى ضمن ثلاث رسائل فى اعجاز القـرآن ط ٠ المعارف بمصر ٠

١١ ـ البيان والتبيين ٠ للجاحظ ٠ تحقيق عبد السلام هارون ٠

١٢ ـ تأريخ آداب العـرب ٠ لمصـطفى صـادق الرافعى ج ٢ ط بيروت سنة ١٩٧٤ م ٠

١٣ ـ تأويل مشكل القرآن ٠ لابن قتيبة ٠ تحقيق السـيد أحمد صـقر ط ٠ مصر سنة ١٩٥٤ م ٠

١٤ ـ التبيان فى علوم القـرآن ٠ لمحمـد على الصـابونى ط ٠ بيروت سنة ١٩٧٠ م ٠

١٥ - تحرير التحبير . لابن أبى الاصبع المصرى . تحقيق الدكتور حفنى شرف نشر المجلس الأعلى للشئون الاسلامية بمصر سنة ١٩٦٣ م .

١٦ - التصوير الفنى فى القرآن . للاستاذ سيد قطب ط . القاهرة سنة ١٩٦٦ م .

١٧ - التعبير الفنى فى القرآن . للدكتور بكرى شيخ أمين ط . بيروت سنة ١٩٧٣ م .

١٨ - تفسير الطبرى . ط بولاق .

١٩ - تلخيص البيان فى مجازات القرآن . للشريف الرضى . تحقيق محمد عبد الغنى حسن ط الجلبى بمصر سنة ١٩٥٥ م .

٢٠ - حجج النبوة ضمن رسائل الجاحظ . نشر السندوبى .

٢١ - الحيوان . للجاحظ . تحقيق عبد السلام هارون .

٢٢ - دلائل الاعجاز . لعبد القاهر الجرجانى ط . مصر سنة ١٩٥٠ م .

٢٣ - ديوان أمية بن أبى الصلت .

٢٤ - رسائل الجاحظ على هامش الكامل للمبرد ط . مصر سنة ١٣٢٣ هـ .

٢٥ - الرسالة الشافية . لعبد القاهر الجرجانى ضمن ثلاث رسائل فى اعجاز القرآن ط . دار المعارف بمصر تحقيق الدكتور / محمد خلف الله أحمد ، ومحمد زغلول سلام .

٢٦ - رسالة فى اعجاز القرآن . لابن كمال باشا مخطوطة فى مكتبة الأزهر تحت رقم ٨٨٥ مجاميع .

٢٧ - زهر الآداب . للحصرى .

٢٨ - سيرة النبى صلى الله عليه وسلم . لابن هشام تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد .

٢٩ - كشف الظنون . لحاجى خليفة ط . مصر سنة ١٩٤٣ م .

٣٠ ـ الكامل . لابن الأثير ط . ليـدن .

٣١ ـ الكامل . للمبرد ط مصر سنة ١٣٢٣ هـ .

٣٢ ـ لسان العرب . لان منظور ط . بولاق سنة ١٣٠٠ هـ .

٣٣ ـ مباحث فى علوم القرآن . للدكتور صبحى الصـالح ط . بيروت سنة ١٩٦٥ م .

٣٤ ـ مجاز القرآن . لأبى عبيدة معمـر بن المثنى . تحقيق فؤاد سركين ط . الخانجى بمصر سنة ١٩٥٤ م .

٣٥ ـ مختار الصحاح . للرازى ط . مصر سنة ١٩٢٢ م .

٣٦ ـ مشاهد القيامة فى القرآن . للاستاذ سيد قطب ط . القاهرة .

٣٧ ـ من روائع القرآن . للبوطى ط . دمشق سنة ١٩٧٠ م .

٣٨ ـ مقدمة نقد النثر ط . بولاق سنة ١٩٤١ م .

٣٩ ـ مناهل العرفان . للزرقانى ط . مصر سنة ١٣٧٢ هـ .

٤٠ ـ النشر فى القراءات العشر . لابن الجزرى ط . دمشق .

٤١ ـ النكت فى اعجاز القرآن . للرمانى . ضمن ثلاث رسائل فى اعجاز القرآن ط . المعارف بمصر .

٤٢ ـ نهاية الأرب . للنويرى . ط . دار الكتب المصرية .

فهرس موضوعات البحث

الموضوع	الصفحة
تمهيد	٣
مقدمه	٥
الفصل الأول : الاعجاز	
نشأته — تطوره — وجوهه	٧
الفصل الثانى : الذين كتبوا فى الإعجاز	٢٥
الفصل الثالث : مظاهر الإعجاز فى نظم القرآن	٦٢
المظهر الأول : الخصائص المتعلقة بأسلوبه	٦٦
المظهر الثانى : المفردة القرآنية	٧٧
المظهر الثالث : الجملة القرآنية وصياغتها	٨٦
المظهر الرابع : الإعجاز والبلاغة	٩١
من روائع التشبيه فى القرآن الكريم	٩٣
من روائع الاستعارة فى القرآن الكريم	١٠١
من روائع الكناية فى القرآن الكريم	١٠٩
الفصل الخامس : الإعجاز فى نغم القرآن	١١٢
خاتمة	١١٧
مصادر البحث	١١٩

دار التراث العربي للطباعة
١٣ شارع سعد الله بالدرب الأحمر
ت ٩٣٦١٤٥١